چינארزیم

אנחנו סינים

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتاب: چينارزيم
التأليف: هبة زايد
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 224 صفحة
عدد الملازم: 14 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2024/2142
الترقيم الدولي: 978-977-669-7829

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الناشر.

حكاية للإنتاج الفني

hakayaproduction@gmail.com
01551751909 _ 01096476744

ممالك الجبال 3

رواية

چينارزيم

אנחנו סינים

هبة زايد

حلمي

إهداء

لمن يحمل على عاتقه مهمة قَص الحكاية.

إلى المرابطين على الثغور، أحرار العالم، (رُبا، براء، ديمة، ورغد...).

إذا كان التحرير ينبع من فوهة البندقية، فإنَّ البندقية ذاتها تنبع من إرادة التحرير، وإرادة التحرير ليست سوى النتاج الطبيعي والمنطقي والحتمي للمقاومة بمعناها الواسع: المقاومة على صعيد الرفض، وعلى صعيد التمسك الصلب بالجذور والمواقف.

غسان كنفاني

شخصيات ممالك الجبال

عائلة كيرال

كيرال: مستكشف وبروفيسور في تاريخ الشرق الأوسط بجامعة أتاتورك بإسطنبول.

عائشة: ابنة كيرال، تدرس نفس تخصصه، ومتدربه معه في الفريق.

عمر: ابن كيرال الأصغر، كان معه في رحلة سيفار الهوا.

فاتن: زوجة كيرال، جزائرية الأصل، كانت تعمل مرشدة سياحية.

الجدة ثويبة: والدة كيرال.

عائلة أوس

أوس: مرشد سياحي في ليبيا، ودارس متخصص في تاريخ بلاده.

تاج الدين: أخ لأوس، ليبي، دارس متخصص في الدراسات الإسلامية.

ثريا: مصورة أفلام وثائقية مصرية، كانت من ضمن طاقم أكاكوس، وتزوجت بـ (تاج الدين).

باقي الشخصيات حسب الأهمية

سيمان: أستاذ في تاريخ الشرق الأوسط، وطالب للبروفيسور كيرال.

زين: خبير جيولوجي مصري، عضو من أعضاء فريق رحلة أكاكوس.

صفية: زوجة زين وابنة خالته.

منصور: جزائري من عائلة فاتن، رحالة يعرف كل شبر في صحراء الجزائر وبعض البلدان العربية الأخرى، لكثرة عمله في الصحراء واهتمامه بها.

فراس: أخ منصور الأصغر وهو من المستكشفين في رحلة سيفار الهوا.

غسان: أحد أفراد فريق رحلة سيفار الهوا، يتخصص في علم الجيولوجيا، وعلى علم بتاريخ البلدان وطبيعة أراضيها.

الفصل الأول

كاهن الأوراس

رمال تحيط بها من كل مكان، تشعر بها أسفل قدميها اللتين غاصتا بها، بدت كأنها مقيدة في صحراء حالكة، لكن ليس هناك سماء بعينيها، حاولت أن تتحدث فلم تصدر سوى أنين ضعيف شعرت هي به، أغمضت عينيها تحاول تذكر ما حدث...

كيف خُطفت في أثناء سيرها؟ من هؤلاء الذين أخذوها؟ هل لهم علاقة بما حدث في أبوا الهوا؟

لعنت اليوم الذي عرفت فيه تلك العرافة الملعونة؛ فكل ما يحدث لها حتى الآن من تحت رأسها.

تحن إلى طفلها الصغير، العائلة التي وجدتها وأنقذتها من المجهول الذي كانت ستواجهه في بلد لا تعرف فيها أحدًا، وليس معها أي أوراق تثبت شخصيتها، تُرى كيف حالهم وريان؟

هواء ساخن اقترب منها، أحست به كأنه نفس من جهنم، ما زال الظلام يعم المكان، حتى أضاء شيء، لم يكن إنسانًا، بل كائنًا مشتعلًا كأنه مارج من نار، ازدردت ريقها وأغلقت عينيها بقوة وهي تستعيذ في نفسها من الشيطان وأعوانه، اقترب منها يسألها: هل لديك أي أمنيات قبل أن تصبحي خادمة لي؟

كانت تحاول أن تنزع رباط فمها بكل قوة تملكها حتى استطاعت فعلها وقالت: بسم الله، وقرأت القرآن فاختفى من أمامها ما كانت تراه، عاد الظلام من جديد بعد هروبه فصرخت عاليًا، سمعها خادم خاطفها، أمرها بالصمت وإلا سيأتي سيده ويعذبها.

خافت وصمتت تدعو ربها في نفسها، لا شيء هنا تراه سوى الظلام فقالت: يا رب نجني، يا من لا يُعجزك شيء سخر لي من ينقذني.

كان قد سمع سيده بالفعل ونزل من عرينه الذي يقوم فيه بكل الأعمال المشبوهة على مرأى ومسمع الجميع، فُتح الباب فدخل شعاع ضوء خافت، رأت «صفية» الرجل يقترب منها، لم تر ملامحه لخفوت الضوء وعدم وضوح الرؤية، لكن أنفاسه الكريهة عبقت رائحة المكان حتى كادت أن تتقيأ من شدتها، اقترب منها فأمسك بشعرها يجر رأسها إلى الخلف ووجهها إلى الأعلى قائلًا: إن لم تصمتي سأخرجك من هنا وأطعمك للكلاب الجائعة، إن أردت البقاء على قيد الحياة؛ اصمتي.

أفلت شعرها ولطمها على وجهها فسقطت بالكرسي على رمال الغرفة فدخلت في عينيها وفمها بعضها، ثم خرج وأمر الحارس أن يغلق الباب دون أن يرفع الكرسي عن الأرض، تترك هكذا دون طعام حتى تعرف كيف تصمت.

* * *

اتصل «أوس» على منزل البروفيسور لكنه كان يصلح عطل في سيارته، ولم يعد بعد؛ فتحدث إلى الجدة «ثويبة» يطمئن على صحتهم، وأراد الاطمئنان هل قوبل طلبه بالقبول أم بالرفض، بشرته «ثويبة» وأخبرته أن «كيرال» سيخبره بنفسه وألا يخاف لأنه شاب جيد بالنسبة إلى الكثير الذين تراهم هنا، اطمأن قليلًا فاستأذن منها وأغلق الهاتف، رأته «ثريا» زوجة أخيه فسألته: ماذا حدث؟ لمَ التوتر؟

تنهد مطولًا قائلًا: أخشى أن ترفض الزواج بي، قالت قبل ذلك لا يمكنها القدوم إلى ليبيا لتقيم إقامة كاملة.

- ألم تخبرها أنك حصلت على عمل في بلدها؟

- لم أفعل كي لا تظن أنني فعلت لأجلها.

- ما المشكلة إن ظنت هذا؟

لم يجيب لأنه يرى أن الرجل لا يجب أن يُظهر اهتمام مبالغ فيه من أجل فتاة، وإن كان يفعل هذا من أجلها؛ عليها أن تشعر دون أي تلميحات، لا يعرف أن هناك أشخاصًا لا يفهمون الأفعال المباشرة أمامهم فضلًا عن التلميحات غير المباشرة، أخرجته من شروده وهي تقول:

- عجيب أمر الرجال، قبلت العمل بتركيا من أجلها والآن لا تريد إخبارها بهذا، هل تظن أنها وأباها لن يعلما من جلب لك عرض العمل؟

- لن تعلم، طلبت من البروفيسور عدم إخبارها قبل أن تجيب على طلبي.

– «تاج الدين» طلب مني الزواج على حين غفلة، لم أتوقع منه طلب كهذا، لكنه كان مفاجئًا وعفويًّا، لذا قبلته بعدما رأيت معاملته لوالدتكما رحمها الله.

– لست مثله، الجميع يحبه لأنه شهم وطيب، يُعلم الناس الخير، رزقه الله محبة الناس، يجب ألا تقارني بيني وبينه.

قالها وهو ينظر إلى أخيه الذي يجلس في زاوية قريبة وحوله الأطفال يعلمهم القرآن والحديث ويساعدهم في دراستهم.

صمتت، شعرت أنها أحرجته دون قصد منها، أرادت أن تهون عليه ما يشعر به لكنها زادت الطين بله، أي بَله هذا الذي فعلته، نظرت إلى السماء وهما جالسان في البهو الكبير أمام المنزل وقالت:

– أوس، ألا تظن أن السماء صافية اليوم، والجو ليس حار كسابقه؟

– نعم، لذا اختار تاج أن يعطي الدرس بالخارج اليوم.

أعطته الطفلين ينتبه عليهما حتى تنتهي من إعداد طعام الغداء وتنظيم المنزل، توصيه عليهما وتخبره إن بكى أحدهما أن يناديها لتأتي وتأخذه، سألها عن السيدة التي تساعدها في أعمال المنزل، أخبرته أن ابنتها تضع مولودها الأول وعليها أن تبقى معها فترة.

* * *

غابة كثيفة الأشجار، بعضها يحترق والآخر بالفعل متحول إلى رماد، جاء يلهث يختبئ عن الأنظار متواريًا عمن أمامه خلف صخرة كبيرة لعله ينحو، لكن لم يدم هذا طويلًا، حيث تحدث جذع شجرة بصورة مفاجئة قائلًا:

– أيها الجندي، تعال أحدهم خلفي، وهناك آخر خلف الصخرة الكبيرة.

هاله ما سمع، حاول الهرب لكن بلا جدوى فقد حاوطه المقاومين وأردوه قتيلًا، قال أحدهم:

– يا أخي، أسمعت صوت الحجر والشجر حين أخبرونا أنهم خلفهم؟

ابتسم له الآخر قائلًا:

– هذا وعد الله يا فتى، إن الله لا يخلف وعده.

ذهب المقاومون ليبحثوا عن آخرين، يجب عليهم أن يقضوا على هذا النبت الشيطاني ولا يتركوا واحدًا منهم على الأرض وإلا سيعيثون فسادًا.

فتيات تختبئ خوفًا مما يحدث على الأرض، يدعون ربهم ليأمنهم، تقف معهم فتاة من المقاومة تحرص على حمايتهم من الأخطار، فهؤلاء القوم فجرة لا عهد ولا دين ويجب الحذر منهم، رأت رجلًا قادمًا من بعيد بدا لها أنه من العدو، طلبت منهم الهدوء حتى يمر أو تستطيع إصابته، فدهشت لما حدث أمامها، فجأة ظهر سبع ضخم فأخذه بين أنيابه دون رحمة، قالت:

– سبحان الله، يبدو أنها النهاية، الأرض تتهيأ لنهايتهم.

فتحت عينيها مستبشرة، ضربات قلبها تتسارع كأنها في سباق، نظرت حولها ومسحت النوم عن وجهها فإذا الظهر يؤذن، قالت:

– لعلها رؤية صادقة، اللهم نصرك الذي وعدت.

خرجت عائشة إلى جدتها ثويبة تخبرها الرؤية التي رأتها في أثناء منامها، فاستبشرت الجدة وقالت لها:

– اجلسي، سأخبرك بموقف سعد بن معاذ معهم، لتعلمي أن النصر يأتي بعد الصبر.

في حرب المسلمين مع يهود بني قريظة في عهد رسول الله ﷺ، كان سعد بن معاذ رضي الله عنه قد أصيب في مناوشات غزوة الخندق.

فلما اشتد الحصار على بني قريظة وجهدهم الحال؛ نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأمر رسول الله ﷺ بأسراهم فكتفوا رباطًا.

وأوكل ﷺ الحكم فيه إلى سعد.

فقال سعد: «**فَإِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُم**».

فقال ﷺ: «**لَقَدْ حَكَمْتَ بِمَا حَكَمَ بِهِ الْمَلِكُ**» فشفى الله صدره منهم.

بعد أن حكت جدتها الموقف، قامت من مقعدها تستأذن جدتها لتشاهد ما حدث هذا اليوم، فمنذ السابع من أكتوبر والاحتلال يحارب بأشد ما يملك من أسلحة وذخائر، والمقاومة تقاوم بشراسة، لكن المدنيين والأطفال يستشهدون، فالعدو لا يستهدف إلا أماكن الإيواء ليحرق قلوبهم ويتشفى فيهم، قاتلهم الله.

* * *

جالسة تبكي على حالها، اختفت زوجة ابنها وبقيت وحدها بعد وفاة زوجها وابنها كذلك، تدعو وتصلي أن يعيدها الله لها، ربت على كتفها «يونس» ابنها الكبير الذي كان على سفر وعاد بعد أن أخبرته بما حدث لـ «صفية» يطمئنها بأنه سيحاول أن يجدها، لن يترك ابن أخيه وزوجته دون أن يعثر عليهما، قالت:

– كيف ستفعل هذا يا بني إنها ليست في مصر؟! أخبرني أصدقاء «زين» أنهم علموا مكانها قبل أن تعود من سفرك.

– دعيني أتحدث إليهم، لأذهب إليهم وأحضرها يا أمي.

– ليس من السهل دخول البلد التي هي فيها، هكذا أخبرني «أوس».

– من هو «أوس»؟

– صديق أخيك، جاء ليحضر لي أغراضه ومكافأته المالية، وفي أثناء وجوده اختفت «صفية».

اتصل «يونس» بابن عمه ليعلم ما حدث لأن أمه لا تستطيع أن تحكي له التفاصيل كاملة، وقد تكون خالته وابن عمه يعرفان شيئًا لا يمكن لأمه إخباره به لأن حالتها يرثى لها، فقد خسرت كل من لها على حين غفلة ولم تكن تتوقع أن تحدث لها فواجع الدهر هكذا واحدة تلو الأخرى، أصبح عقلها مشوشًا، أحيانًا تتحدث إلى نفسها وتخبره أنها تُحدث أبيه وأخيه، وعندما عرضها على الطبيب أخبره أنها مصابة بصدمة نفسية وستتعافى قريبًا، لكن عليه تهيئة الظروف المناسبة للعلاج، وهو لا يستطيع تهيئتها الآن دون أن يجد زوجة أخيه وطفله الذي لا بد أنه قد وُلِد.

* * *

شبح ليل حالك داهم المكان فأصبح كأنه لم ير النور يومًا، كل ما هنا معتم، معدم الحياة، كأنها مدينة عائدة من الموت، أو بُعثت من جديد لا روح فيها، خاوية على عروشها من كل شيءٍ يبعث على الحياة، مكممة الفم مكبلة

اليدين والقدمين تحاول أن تبصر أي شعاع ضوء، تشعر بخيالات تلتف حول جسدها وكأنها عاصفة هوجاء، لا تدري ما يحدث من حولها، تسمع حسيس أنفاس قريبة، لكن شبح الظلام يأبى أن يعطيها الأمل لرؤية الضوء.

قلبها نبضاته تتسارع، كاد أن ينخلع من شدة دقاته، يعلو صدرها ويهبط، خطوات تدنو منها، نحيب وأنين تسمعه بوضوح، حتى دوت هذه الصرخة التي تزامن معها رؤية شعلة مضيئة وصوت إطلاق نار، سكن بعده صاحب الصرخة إلى الأبد.

اقترب صاحب الأنفاس المسموعة وهو يقول:

- كيف حالك الآن؟ هل تخافين الظلام؟

لم تستطع الإجابة لأنها مرتعبة مرتعدة الأوصال، عيونها متحجرة محاولة منها لرؤية أي ضوء قريب، تصدر أنَّات متتالية ليطلق لها السبيل للكلام، تركها وحيدة تئن وتفكر كيف ينام من أذىٰ روحًا؟ أينام قرير العين ومن ظُلِم يشكو بثه وحزنه إلى الله؟!

اعتادت هي ألا تنام بعد أن ظلمت، ظنًّا منها أنها قد تستيقظ ولا تجده حيًّا لتعتذر منه فتندم طول عمرها، قالت في نفسها «ربي دبر لي أمري واجعل لي مخرج من هذا المكان الموحش» سمعت صوت آذان قريب فعلمت أن الوقت ما زال مبكرًا.

بالخارج يجلس الظالم على مقعد وثير يأكل ويمرح بغنيمته، فتاة جميلة قد تنفعه إذا باعها لأي شخص يريدها، أو يجعلها حبيسة كما هي ويجبرها على القيام بأبشع الأعمال وأدنسها.

اقتربت منه امرأة تبغضه قائلة:

– لم تطلب مني شيئًا اليوم! وماذا عن الفتاة أطعمتها أم لا؟ نحتاجها حية، ستجلب لنا الكثير من المال.

تحاول معرفة ما يدور في عقله لأجل «صفية» لا تريد أن تتعذب هنا مثلها، نظر إليها باشمئزاز وهو يأكل تفاحة حمراء مما جعل قطع من التفاح تتساقط على ملابسه، قائلًا:

– لم أطعمها، سأدعها هكذا جائعة حتى أُجهز كل شيء لأجلها، إذا وافقت على العمل معنا دون عناء، ستحصل على الطعام مقابل العمل، إن لم تفعل؛ عُذبت حتى تموت.

– لكنها حُبلى، انتبه ستجلب لنا مصيبة.

– ما شأنك أنتِ في الأمر؟ لا تشغلي بالك بها واهتمي بعملك فقط.

– إنها حُبلى ويظهر عليها ذلك.

– غير صحيح، بطنها ليس كبيرًا، تريدين ألا تصبح مثلك أعلم هذا جيدًا.

– يا سيدي لا أريد أن تسبب لنا متاعب إن حل بها مكروه.

نظر إليها يفكر، هل المرأة حامل كما تقول أم تريد إنقاذها من مصيرها معهم، ستعمل في كل شيءٍ بغيض حتى تجلب لهم المال أو تُباع أعضاء لمن يريد وهؤلاء كُثر، أعجبته بعد أن وجدها مُلقاة في الصحراء، لكنها لم تطيعه لذا لن يرحمها، بعد تفكير قال للمرأة:

– ستظل جائعة حتى تطيع الأوامر، لن أرحمها، واسمعي، إن أطعمتها من ورائي ستعاقبين أشد العقاب.

تسمع ما يحدث في الخارج وهي تتألم من قيودها، وتدعو ربها أن يسخر لها من يساعدها هنا، كما استطاعت الهرب من خاطفها في الصحراء التي وجدت نفسها فيها على حين غفلة، تدعو أن تخرج من هنا وتعود إلى طفلها من جديد.

* * *

تحمل الطفل على يديها تهدهده وتغني له كي يتوقف عن البكاء، قلبها ينزف عليه، فقد أمه على غفلة ولا أحد يعلم أين اختفت، خطفت أم قتلت، يبحث عنها «منذر» في كل مكان لكنه لا يتوقف عن البكاء، تعطيه رضعات بانتظام لكنه يشعر بأن هناك شيئًا ينقصه، أمه التي لم يفارقها مذ رأت عينيه هذه الدنيا، عاد «منذر» يخبرها أنه لم يجدها، وزع صورها في المستشفيات وفي الميادين بعد أن قام بطباعتها، علقها على مداخل الشوارع وأعمدة الكهرباء، في الميادين والجرائد والمجلات، لم يتبقَّ سوى أن يضعها على مواقع التواصل الاجتماعي، أخبرها أنه سيذهب إلى متجر قريب من المنزل، خرج ووصل إلى متجر للحواسيب الآلية فسأله عمَّا يريد وطلب منه أن يقوم بعمل إعلان له عن هذه المرأة المفقودة، أخبره أنها ابنته فقال:

– هذه صورة ابنتي لها أسبوعين مفقودة، بحثت عنها في كل مكان ووزعت صورها لكنني لم أصل إلى شيء، أريد أن أقوم بنشر إعلان على وسائل التواصل الاجتماعي لكنني لا أملك واحدة، ولا أعلم كيف أفعله.

رد عليه الشاب بأدب بعد أن تعاطف معه:

– سأقوم بنشر إعلان لك يا سيدي دون مقابل، سنجدها بأمر الله.

استبشر «منذر» خيرًا، شكر الشاب وجلس معه حتى أنهى وضع الإعلان وقام بعمل بريد إلكتروني له، تنهد مطولًا وآسر حزنه في نفسه لعدم استطاعته الحفاظ عليها حتى يوصلها لأهلها.

* * *

يشاهد في غرفته الأخبار ويتابعها عبر منصات التواصل والتلفاز، لا يهنأ بنوم ولا طعام، يشعر أنه واحد منهم، إخوانه يُمارس عليهم شتى أنواع العنف والقتل، يتلاعبون بهم كقطع الشطرنج، زفر بضيق ونهض من فراشه وهو الذي كان ينام بعد أداء الفجر لكنه لم يعد يفعل، ارتدى ملابسه ليذهب إلى أي مكان، برغم أنه يوم إجازته لكنه لم يستطع أن يقضيه في منزله كعادته قبل بدء الحرب، خرج «عمر» من غرفته ألقى السلام على والديه وسأل عن جدته وأخته، أخبرته أمه أنهما يتحدثان معًا ولم تأتيا للإفطار بعد، استأذنهما ليخرج فسأله «كيرال»: «إلى أين يا بني؟».

– سأتمشى قليلًا على البسفور، أو ربما أذهب لأتمرن في النادي يا أبي.

– لا تعلم أين ستذهب؟

– أشعر بضيق يا أبي، أختنق كلما شاهدت الأخبار، علينا فعل شيء.

– هذا قدر يا بني، نحن هنا مكتوفي الأيدي وهم في رباط.

– هذا كثير يا أبي، لا بد أن هناك حلًّا، لا يجب أن نظل هكذا صامتين، الخذلان خيانة يا أبي.

– لا أقول لك نصمت، لكن ما الذي يمكننا فعله أخبرني؟

صمت وفي عينيه كلام كثير لا يمكنه قوله، لا شيء يعبر عمَّا يريد أن يبوح به ويصرخ به في وجه العالم، الخيانة صعبة والصمت خذلان، هذا ما يقوله، يخشى أن تكون مجرد شعارات يرددها وهو لا يستحق أن ينال شرف الدفاع عن المسجد الأقصى، لكنه يصبر نفسه أنه يحاول أن يقاوم.

خرجت «عائشة» وجِدَتَها من الغرفة، لمحا «عمر» في أثناء غلقه للباب فسألت أخته: «أين ذهب «عمر»؟».

أجابت أمها وهي مثقلة بما شاهدته في التلفاز، أن أخاها يختنق بسبب ما يحدث فأراد أن يستنشق بعض الهواء، لمحت في عيني أمها دمعة تمنعها من الخروج لكنها لم تتفوه، فهذا ما يحدث للجميع، لا ينامون، يأكلون، يعيشون كما كانت الحياة قبل السابع من أكتوبر، قالت باختناق:

– لكن هذا الصراع عمره طويل يا أمي، لم يكن وليد اللحظة.

ردت «ثويبة» عليها:

– إن شوارع وأشجار فلسطين عمرها أكبر من عمر المحتل، لكن هذا قدر الله ولن يمحي أحد هذا المحتل إلا الله وحده.

فتحت «عائشة» السبيل لدموعها فنزلت قائلة: «هنا يا جدتي يأتي سؤال دومًا أسمعه وأقرأه، لماذا لم ينهِ الله هذا الأمر حتى الآن؟ أعلم أنه لحكمة، لكن الشباب يطرحون السؤال عن جهل بأمور الدين».

شعرت بسحابة دمع تهبط على عينيها، حتى غاب عن نظرها كل شيء، تكلمت والدموع تسيل على وجهها قائلة: «هذا لأنهم لا يعرفون الله حق المعرفة ولا يعطونه قدره، فمن يتكلم لم يتعلم، لله في خلقه شؤون، إن ما يحدث هي سنن الله في كونه، لا أحد يمكنه تغييرها إلاه».

غادرتهم «ثويبة» بعد أن قالت هذه الكلمات لتخفي عَبراتها وحدها، فقد كان سؤال «عائشة» كالطوفان بالنسبة إليها، جعلها تتذكر كل شيء مر أمام عينيها، كيف باع الإخوة أخاهم؟ كيف تركوه وحيدًا يواجه كيانًا مختل؟ كيف لم يقفوا وقفة صارمة أمام هذا الكيان؟

حمدت الله على جميع نعمه وجلست بجوار نافذتها فرأت أمامها حفيدها يسير ذهابًا وإيابًا لا علم له بما يفعل، فقالت في نفسها: «الأمل فيك ومن مثلك يا بني، حفظكم الله ورعاكم حتى نرى التحرير على أيديكم».

أخذت «ثويبة» مصحفها لتقرأ وتطمئن وانغمست تتدبر كلماته كعادتها.

ينظرا إلى «عائشة» بغضب واضح على ملامحها، ازدردت ريقها قائلة:

– لم أكن أقصد مضايقة جدتي، تعلمان ذلك، لا تنظرا إليَّ هكذا.

طلبا منها تناول الطعام بسرعة لتخبرهما رأيها بخصوص زواجها من «أوس» الرجل ينتظر له مدة، قال «كيرال»:

– لن أدعه ينتظر أكثر، إما تقبلي أو ترفضي، إننا نراه شابًّا جيدًا، لكن لا نستطيع إجبارك على شيءٍ.

بصقت بعض طعامها، لم تتخذ قرار بعد، أرادت التفكير مدة أطول والأحداث المتتالية منعتها من اتخاذ قرار، لاحظت «فاتن» انهماكها في التفكير فقاطعت شرودها بقولها:

– معك حتى الغد لنرد عليه يا «عائش»، انتظر الشاب طويلًا.

قامت من مكانها بعد أن استأذنتها دون أن تكمل طعامها، أخذت طبق به بعض الطعام مع كوب شاي لجدتها وذهبت لمصالحتها بعد أن أغضبتها وكذلك لتستشيرها في أمرها الذي بات عليها أن تتخذ فيه قرارًا وحدها.

* * *

يتحدث مع رفيقه ذي الأصول العربية على الهاتف يخبره بما يعانيه وما يخبئه صدره من ألم دفين، يواسيه مصبرًا نفسه معه أن كل ما يحدث الله يعلمه وله حكمة فيه وإن كنا نجهلها، ثم قال:

– ما رأيك أن نلتقي اليوم؟

– من الجيد أن نلتقي يا «رقيم»، أود ذلك.

– سآتيك بعد قليل فاستعد.

جلس على مقعد بجوار الشاطئ ينظر إلى الطيور المحلقة فوقه بأمان تام، ترفرف بأجنحتها حرة تعانق السماء، تمثلت أمامه كأنها أرواح تحلق بحرية بعدما قتلوا دون رحمة على يد عدو مختل، فارتاحوا من عناء هذه الدنيا ليحلقوا كما يحلو لهم، رأى صورهم حية أمام عينيه، لا يمكنه نسيان ما يشاهده في كل مكان يذهب إليه، الجميع يتحدث عما يحدث دون انقطاع.

وصل إليه شاب عريض، بشرته سمراء وعيونه عسلية وملامحه عربية، رآه جالسًا أحضر شاي وكعكات من بائع قريب وجلس بجواره يسأله كيف حاله ولِمَ هو مهموم هكذا؟

فقال بصوت يحمل ثقل العالم كله:

– لا أستطيع التحمل أكثر، لا يمكنني النوم، أراهم أمام عيني في كل لحظة، لا بد أننا نستطيع فعل شيء.

تنهد «رقيم» بثقل:

– سأذهب مع مجموعة أطباء متطوعين إلى هناك، إن شئت آخذك معي.

– هل يمكنني الذهاب أنا ما زلت في عامي الثالث لدراسة الطب؟

– يمكنني إدخالك معي، لا بأس بهذا، لكن هل سيوافق والديك؟

– أعلم أن أبي لن يرفض، يعلم ما في قلبي أخبرته بكل شيء.

– تناول الطعام الآن، ثم سآتي معك إلى منزلك لأطمئن على العائلة وأشرح لهم طبيعة الأمر هناك.

بدأ بتناول الطعام معًا، لانت ملامح «عمر» بعد كلام رفيقه كثيرًا، علم أنه قد يفيدهم هناك بأي شيء، ارتاح لذلك ولأول مرة منذ أيام يتناول طعامًا حد الشبع، عكس ما كان يفعل منذ السابع من أكتوبر، كان يأكل ما يقيم بدنه حتى فقد أكثر من ثلث وزنه لقلة الطعام، توجه إلى «رقيم» بسؤال:

– هل تعرف تاريخ المنطقة جيدًا؟ لقد قرأت عن أبطالها بكثرة طيلة الفترة السابقة، علمت أن الأمر منذ زمن بعيد ليس حديث عهد.

– نعم إنه قديم، من منهم عَلِق بذهنك أكثر؟

– آخرهم عبد القادر الحسيني الذي قتل في حصار القسطل.

هز «رقيم» رأسه وهو يحدثه عنه فهو أكثر من يعرف تاريخ دولته الأم، نعم لم يولد بها لكن أبواه علماه تاريخها كله كي لا ينسى هويته، قال له:

– هل يمكنك إخباري معلومة واحدة عنه يا «عمر»؟

– نعم يمكنني، استعد لتسمع ما قرأته عنه، كانت بداية رحلة جهاد طويلة منذ العام 1935 وانتهاءً بعام 1948 في معركة القسطل الجهادية.

حاولت بريطانيا ضمه لها كثيرًا لكنه كان مؤمنًا بالمقاومة المسلحة ليدافع عن فلسطين، خطا خطوات الراحل عز الدين القسام ليقود التحرير، ودرب شباب للدفاع عنها، وحينما طلب سلاحًا من اللجنة العسكرية بعد قرار تقسيم فلسطين رفضوا وخذلوه فقال عبد القادر الحسيني:

– «إنني ذاهب إلى القسطل وسأقتحمها وسأحتلها ولو أدى ذلك إلى موتي، والله لقد سئمت الحياة وأصبح الموت أحب إليَّ من نفسي من هذه المعاملة التي تعاملنا بها الجامعة، إنني أصبحت أتمنى الموت قبل أن أرى اليهود يحتلون فلسطين، إن رجال الجامعة والقيادة يخونون فلسطين».

قام باقتحام قرية القسطل مع عدد من المجاهدين، ما لبث أن وقع ومجاهديه في طوق الصهاينة وتحت وطأة نيرانهم فهبت نجدات كبيرة إلى القسطل لإنقاذه ورفاقه، وكان من بينها حراس الحرم القدسي الشريف، وتمكن «رشيد عريقات» في ساعات الظهيرة من السيطرة على الموقف وأمر باقتحام القرية وبعد ثلاث ساعات تمكنوا من الهجوم وطرد الصهاينة منها.

استشهد عبد القادر صبيحة الثامن من إبريل عام 1948 م، حيث وجدت جثته قرب بيت من بيوت القرية، فنقل في اليوم التالي إلى القدس، ودفن بجانب ضريح والده في باب الحديد، وقد استشهد وهو في الأربعين من عمره، أي في أوج عطائه الجهادي.

ولما خرج الجميع لتشييع عبد القادر الحسيني أبت قوات الاحتلال الصهيوني إلا أن ترتكب أخرى، فعمدت إلى مهاجمة قرية دير ياسين وأتت أُكلها فلم يبقَ فيها شيء ينبض بالحياة، فقط ركام المنازل وأشلاء الفلسطينيين متناثرة في كل مكان.

حياه «رقيم» على قراءته عن بداية المقاومة لكنه أخبره أن هناك الكثير وسيخبره به إن أراد، ثم أخرج مفتاح قديم من جيبه وقال له:

– هذا مفتاح بيتنا هناك في يافا قبل أن يتم طرد جدي منها.

حكى له «رقيم» أنهم يورثون المفتاح لكل حفيد لعله يعود وقت التحرير، ثم أتبع قائلًا:

– إنها عقيدتنا وعقيدة كل حر فلسطيني، لم يبع أحد منا أرضه ولا هان عليه تركها، إنما اغتصبت منا وتم تهجيرنا يا «عمر»، لا تصدق ما يُقال إننا تركناها خوفًا وخيانة.

* * *

تجلس أمام جدتها منتظرة فراغها من القراءة، وضعت أمامها الطعام، عيون جدتها مليئة بسحب الدمع الذي لم تستطع حبسه أكثر، أعطتها منديلًا

لتكفكف دمعها وقبلت رأسها معتذرة منها، ربتت الجدة على يدها تطمئنها أنها لا تبكي بسببها إنما قلبها يؤلمها وجاء سؤالها فانفجرت دون وعي منها، هدأت عائشة من روعها فسألت جدتها:

– ما رأيك في «أوس»؟

– لهذا أتيتِ يا ابنتي؟

– خائفة من هذا القرار، أريد استشارتك.

– أراه شابًّا جيدًا، على خلق، على قدر من الدين، ومعه شهادات كما تتمنين.

– لكنني لا أريد العيش بعيدًا عنكم.

– أعلم أنه قادم هنا من أجلك.

– لا علم لي بالأمر.

– لأنه أراد أن يعرف رأيك دون معرفتك بأنه سيعمل هنا.

تنهدت خجلًا، سيترك بلده لأجلها، لا بد أنه شخص جيد، لكن عاداتهم مختلفة، كذلك أبوها وأمها عاداتهم مختلفة ولم يؤثر هذا على حياتهم، شكرت جدتها وقامت لتفكر وحدها في قرارها المصيري.

* * *

كبر الأولاد أمامها، كل منهما يشق طريقه وحده، يستشيران أحدهما إذا احتاجا إلى شيء، لكن قراراتهما أصبحت نابعة منهما وحدهما، ينظر إلى صورة

معلقة على الجدار تجمع العائلة، لاحظت «فاتن» شروده فسألته: «ما بك يا كيرال؟ بم تفكر وحدك؟».

– لا شيء، فقط تذكرت طفولتهما، هل مرت السنوات بسرعة أم أنا الذي انشغلت عنهما؟!

هو الذي انشغل يعلم هذا، أرادت زوجته قولها لكنها آثرت الصمت، كانت تستيقظ طوال الليل بهم وهو نائم أو في سفرة من سفراته، تركت عملها في الشركات الحكومية والخاصة وكادت أن تنسى نفسها لولا وجود أمه معها الذي أصبح مهمًّا لها، ما إن وضعت عمر حتى كادت أن تنهار من قِلة نومها وتعبها، هزل جسدها حتى استحالت معرفتها، أهذه العروس الجزائرية الجميلة التي جاءت، كانت وردة لكنها بدأت تذبل لقِلة ريها، أو لأن المكان الذي زرعت فيه غير مناسب لها، سألتها «ثويبة» أن تأتي للعيش معها لتساعدها في تربية الطفلان فوافقت على الفور، كانت تحتاج إلى رفيق يعينها لأن زوجها تركها وحدها بهما.

قدرها أنها تزوجت من رجل عنيد لم يكن يهتم سوى بدراساته وإنجازاته هو، لما استفاقت وبدأت تستعيد رونقها طلبت منه أن تعمل في إحدى شركات الطيران لأنها تحب السفر لكنها لم تسافر كثيرًا، فرفض وبعد إلحاح منها وافق لكن اشترط أنه لبضعة أشهر فقط، ثم عليها إيجاد عمل آخر لأن هذا غير مناسب لها، امرأة مثلها تجيد اللغة الفرنسية والتركية والإنجليزية فضلًا عن اللغة العربية لمَ تجلس في البيت؟! عليها أن تعمل لتفيد المجتمع

أو هكذا ظنت، وافقت على طلبه مؤقتًا لكن سرعان ما أصبحت لا تتحمل العمل والمنزل حتى جاءها أخيها ليعطيها نصيبها من ميراث والدها بعد أن تم تقسيمه، كان مبلغ كبير فقامت بتأسيس شركة صغيرة خاصة بها لحجز تذاكر الطيران، عام بعد عام كبرت الشركة وأصبح لها اسم في سوق العمل، وكان فضل الله عليها عظيماً، قاطع شرودها «كيرال» سائلًا:

- لماذا لم تجيبي؟

- لا شيء سرحت قليلًا، اعذرني أنت انشغلت عنهم في عملك وتركت ذكرياتهم تتمحور حولي وجدتهما، وأنت كنت تصنع أمجادك التي جلبت لنا المشكلات، وفقدت قدمك بسببها.

أشاح بوجهه عنها، هي محقة، لم تجلب رحلاته سوى المشكلات على أية حال، حتى هي لم تسلم منه، فقدت أبيها وأخيها في رحلتين منهما، كادت أن تفقده هو وابنته لكن الله لطف بهما، تمنى لو أنها لم تقل هذا، يعلم أنها تخفي الكثير بداخلها لأنه أهملها كنبتة اشتراها ولم يرعاها إلا بفائض وقته فقاومت حتى تحيا دونه، فاستقامت وقويت دون أن تحتاج إلى مساعدة منه ورسخت جذريها في أماكنهما المناسبة لهما كما اختار كل منهما دون أن يُجبر، تتفاخر بولديها وتربيتها التي ساهمت فيها «ثويبة» فكانت الأم تُدرسهما وتلقنهما خبرات الحياة، والجدة تهيئهما دينيًّا حتى قويت البذرتان وبدأت تحصد ثمارهما الآن، برغم الأخطاء التي يقعان بها، لكن في النهاية هما جيدان في نظرهما.

غادر «كيرال» إلى مكتبه وهو ينظر إلى الساق الصناعية التي يتحرك بها بدلًا عن التي فقدها، عَلِمت بتصرفه هذا أنه أخذ على خاطره ولن يتكلم حتى يهدأ وحده، تركته يفعل ما يشاء وبدأت هي في أعمالها المنزلية كالمعتاد.

* * *

في مكتبه جلس يفكر في «صفية» التي لم يعيدوها بعد، حاول ربط الخيوط ليجد حلًّا لكنه لم يستطع، تذكر مكالمة «أوس» وأن الخاطف حدثه وأراده أن يأتيه وحده ليأخذها لكنه خاف أن يرسله بمفرده وطلب منه الانتظار، تناسى أن كل يوم يمر على «صفية» فيه خطر عليها، لكن بعد فترة حينما وصل إلى أم زين خطاب «منذر» الرجل الذي وجدها ولم يتوانَ لحظة حتى وصل إلى أهلها اطمأنوا جميعًا، أمسك هاتفه ليتحدث إلى «منصور» وهو ينظر إلى ساعته بسبب فرق التوقيت بين البلدين، أراد أن يبدأ تجهيز الرحلة معه هذه المرة فهو خبير بخبايا الصحراء.

أخبره بما حدث لصفية، ووجودها في أرض أخرى غير أرضها، لا يدرون أحبيسة هي أم طليقة، بخير أم لا، أهلها كانوا يبحثون عنها حتى اتصل رجل من الأردن ليخبرهم أنها عنده ووضعت طفلها، حماتها أصبحت وحدها حتى أصيب بشيءٍ من الجنون، قال كيرال:

– جاءتنا مكالمة من أوس يخبرنا فيها بما أُخبر به من قِبل خاطفها، حللنا لغز المدينة وعزمنا على الذهاب لكنني أحتاج إليك معي، لن نستطيع الدخول إلى هناك من دونك، هل أنت معي يا منصور أم لا؟

- بأي بلد هي يا بروفيسور؟

- في فلسطين، كانت لدى عائلة على حدود الأردن، لكنها خُطفت بصورة عجيبة.

توجس «منصور» خيفة فهذه أرض لن يستطيعوا دخولها بسهولة فسأل:

- هل خاطفها إنسان؟! أخبرني مع من نتعامل؟

خيم الصمت قليلًا، لكنه أجابه قائلًا:

- نعتقد أنه من الجان.

صمت «منصور» يفكر فيما سيفعل، فتذكر أنه يعلم أحد الكهنة القريبين من سيفار، يمكنه فتح بوابة زمنية من سيفار إلى أي مكان آخر، فقال:

- أنا معك، لكننا سنحتاج إلى بعض التجاوزات، سنتعاون مع كاهن لندخل إلى هناك، فأنا لن أدخلها بإذن ساكنيها الأنجاس.

- كما تشاء، المهم عندنا أن ننقذ الفتاة وطفلها، وبعد ذلك نقيم حفل خطبة «عائشة» و «أوس» إن شاء الله.

- تمم الله على خير، نبارك لهما حين يأتيا إلينا بأمر الله، هناك شيء بروفيسور، لن نجهز فريق هذه المرة، سنكون ثلاثة فقط، أنا وأنت وأوس.

- تعلم أن «عائشة» ستأتي حتمًا، لا تُصر على هذا.

- لا أريد أخذ نساء، كفاني مصيبة المخطوفة هناك، هن دائمًا يقعن في مشكلات وعلينا إنقاذهم، لا تبلِني بامرأة.

ضحك «كيرال» قليلًا، ثم قال:

- حسنًا، لن نأخذها معنا.

اتفقا على كل شيء، المواعيد المحددة لانطلاقهم، من سيذهب إلى هناك، بقى أمام «منصور» اتفاقه مع الكاهن الذي لا يفعل شيءٍ دون مقابل.

بدأ يحدد «منصور» على الورق الأماكن التي يود الذهاب إليها، ليحصل على «صفية» وابنها، وكيف سيتمكن من ذلك.

يدور حوله «سالم» يلعب مع أخيه الرضيع بصوت عالٍ أفقد «منصور» تركيزه، فقال له:

- خذ أخاك والعب بغرفتك يا سالم، هيا بسرعة.

تلاحظ «أفنان» انشغاله طلبت من «سالم» أخذ أخاه بعيدًا عن أبيه، اقتربت من «منصور» تطمئن هل هناك شيءٍ؟

أخبرها أن كل شيء بخير وهي ليس لها أن تسأله، عليها أن تذاكر وتهتم بالطفلين فقط ولا تتدخل في شؤونه، تعلم أنه غير مستقبل فكرة أنها أصبحت زوجته، لكنها ظنت أنه سيعتاد الأمر ولن يبقى هكذا طويلًا، خاب ظنها كثيرًا، أخذت الولدين وصعدت إلى الأعلى ليلعبوا معًا، تركوه غارقًا بين ترتيباته التي يقوم بها، وعندما احتاج إلى شيء ظل يناديها مرارًا، نزلت إليه فقال:

- لِمَ تأخرتِ هكذا، ألم تسمعي من أول مرة؟!

هي لم تنتبه بسبب لعبها مع الولدين فقالت منكسة رأسها:

– أعتذر، كنت ألاعب الطفلين لأشغلهما عنك ولم أنتبه.

تمعض وجهه قائلًا:

– أعلم أنني تزوجت طفلة، كانت أختك تدللك كثيرًا، أخطأت حين ظننتك نضجت.

خيم الحزن على وجهها، يقسو عليها بالكلمات منذ زواجهما، لم يكن يريدها لصغر سنها، لكن حدث ما حدث، يجب ألا يعاملها بتلك الطريقة طول العمر، تحدثت وقد بدا الحزن واضحًا على صوتها:

– هل كنت تريد شيئًا؟

رمقها بغضب من نفسه لأنه أحزنها وقال:

– لا، سأجلب لنفسي ما أريد، شكرًا لكِ.

فتح التلفاز يشاهد آخر الأخبار التي يتابعها، له عشرة أشهر اليوم، التاسع والعشرين من يوليو، شاب من الأسرى تعرض للتعذيب على يد تسعة عناصر من قوات الاحتلال بأبشع أنواع التعذيب، من أخبر عنه طبيب أجنبي متطوع في مشفى علاج ضحايا الحرب، أورد تقريره طرق التعذيب التي حدثت له، كما يوجد ثمانٍ وأربعون حالة وفاة منهم ستٌّ وثلاثون حالة وفاة في معسكر سديه تيمان، بكت «أفنان» دمعت عيني «منصور» الذي بدأ يكيل السباب لجنود الاحتلال ويقول:

– ليس هناك كلمة أبشع لأقولها عنهم، إنهم كفرة فجار، يمارسون أبشع أنواع الاعتداءات السادية على إخواننا، ونحن هنا مكتوفي الأيدي، يا رب

ماذا نفعل لهم؟!أغلق التلفاز وخرج من المنزل مختنق بالدمع كي لا يراه أحد، أخذ سيارته يشق بها عباب الطريق إلى حيث لا يدري، لم يكن يردد في أثناء قيادته إلا كلمات يناجي بها ربه قائلًا «يا رب الأرض أرضك والسماء سماؤك، اخسف بهؤلاء الكفرة واشفِ صدورنا»، ثم بكى بحرقة لم يعهدها من قبل.

حل الدُّجي وأصبحت السماء معتمة إلا من ضوء النجوم، فاستحالت الرؤية دون مصابيح السيارة، وصل إلى مكانه المنشود بعد قضاء ساعتين وأكثر في الطريق، مكان مقفر لا شيء هنا سوى صوت الرياح وعواء الذئاب وربما السباع تأتيه لتنهشه من حيث لا يدري، ترجل من سيارته ليأتيه رجل طويل الهيئة يُمسك عصا يتوكأ عليها، أقدامه غريبة كأنه ليس من البشر، له لحية وشارب يكاد يدخل فمه، رائحته نتنة وبشرته سمراء لكونه جالسًا في الصحراء، اشمأز منه، ألقى «منصور» السلام يخبره أنه يريد لقاء «كاهن الأوراس»، دنا منه الرجل وأخبره أنه سيخبر الكاهن ويعود إليه بعد قليل.

عجوز غريب الهيئة جالس على كرسي من الفراء، رائحة المكان غريبة، بخور من نوع خاص، ليست رائحة نتنة كما يعتاد الكُهان، عيون جاحظة وُضع بداخلها كُحل أسود لتبدو مخيفة أكثر مما هي عليه، صوته أجش غليظ قال:

– أهلًا بك يا «منصور»، كنت أعلم بقدومك منذ مدة.

– كيف علمت؟!.. هل أخبرك رفاقك الذين يعملون معك أنني قادم؟

– لا يا «منصور»، تعلم أنني أرى من يأتيني قبل مجيئه، توفيت زوجتك، أحببت أن أرسل إليك برقية عزاء، لكنني علمت أنك تزوجت أختها الصغرى «أفنان» لكنك تعاملها بسوء، لا تفعل هذا بها.

ـ لا دخل لك بحياتي، أبعد عينيك عنا، دعك منا.

– قد تفكر الفتاة في الانتحار، انتبه لأنك تقسو عليها.

حذره منصور من ذكر أي شيءٍ يخص عائلته، ثم طلب منه ما يريده فقال:

– لي معارف من الجان هناك يمكنهم إدخالك، لكن عليك دفع التكاليف أولًا.

– أخبرني ما تريد، سأدفع لك.

– ليست لي، تعلم إنها طلباتهم، يريدون طفلًا رضيعًا لم يشرب حليب أمه قط، أعتقد أن طلبنا عندك.

صعق منصور لطلبه المفاجئ هل يريد منه تقديم ابنه قربان للجان؟

هل جن هذا العجوز الخِرف؟

الفصل الثاني

الهوية

الأنفس تختلف، كذا اللون، العِرق، ولكن ما يميز الأشخاص ويجمعهم هو هويتهم التي لا يرثونها من آبائهم بل من دينهم وأفكارهم التي يدافعون عنها، هويتك هي أنت؛ لذا أنت تُحَارب.

صدام عجيب بين الوالدين لمعرفة «فاتن» بمكان رحلتهم القادمة، يسمع من خارج الغرفة «عمر» و «رقيم» الذي جاء ليطمئن عليهم، رأته الجدة رحبت به وجلست معهما تسأل عن أحوال عائلة «رقيم»، أشارت إلى حفيدها ليخبر أخته بإحضار شيء لرفيقه، كذا يخبر والديه لعلهما يخفضان صوتهما قليلًا، أخبر أخته بما يريد، توجه إلى مكتب والده ليطلب منهما أن يخفضا صوتهما لوجود «رقيم» بالخارج، فقد دعاه «كيرال» لتناول الغداء، صمتا معًا فسأل «عمر»:

- لماذا تتشاجران؟

قالت بغضب جم واضحًا على وجهها:

- يريد أبوك الذهاب إلى فلسطين يا «عمر».

حك «عمر» ذقنه بدهشة:

– وما المشكلة؟ إن ذهب كسائح أو عالم سيرحب به، أما إن أراد الدخول كطبيب إلى موقع الحرب يجب عليه إحضار تصاريح وأوراق كثيرة.

رفعت حاجبها بدهشة ملتفته إليه تقول:

– ماذا قلت يا «عمر»؟

– كما سمعتِ يا أمي، سيدخل بصورة طبيعية، أما نحن دخولنا به مشكلات كثيرة.

– ومن قال إنك ستذهب إلى هناك؟ لست طبيبًا بعد.

– أعلم، لكنني أستطيع المساعدة بصفتي أدرس في كلية الطب.

– لم ينتهِ العام الثالث بعد.

– أعلم يا أمي، لكن «رقيم» سيرتب الأمر لا تقلقي.

صرخت بوجهه معبرة عن قلقها لمجرد الفكرة، لكنه كان عنيدًا، ورث العند من أبيه، وهي لن تسمح له بالذهاب، كذا هو لن يدعها تمنعه أو تنحي الفكرة عن رأسه، يرى «كيرال» الصدام بينهما وهو جالس مضيق عينيه، أخذ هاتفه واتصل على «منصور» يخبره أنه حسم الأمر، سيأتي ومعه ابنه و»أوس» ليبدؤوا رحلتهم معًا، التفتت «فاتن» إليه وهي تقول:

– هل تريد أن تتسبب في مقتل طفلي كما تسببت في موت أبي؟

– لم يعد طفلًا إنه رجل يريد أن يساعد أبرياء، ابقي أنتِ في أمان ودعينا نفعل ما نرى فيه صالحنا، إياكِ أن تتدخلي إياكِ.

– لكن يا أبي سأذهب مع «رقيم» لن آتي معك، سأكون مع وفد وزارة الصحة بصورة رسمية.

صمتت أمه وفي جوفها بركان يريد أن ينفجر، هذا ابنها الوحيد الذي انتظرته حتى يكبر، الآن يريد الرحيل، أبوه لا يمنعه بل يشجعه على الذهاب إلى مكان غير آمن، صُدمت ككل مرة تُصدم فيها لكن هذه المرة قد تخسر من كَبُر أمام عينيها يومًا بعد يوم، خرجت إلى المطبخ دون أي كلمة، تخرج غضبها في أي شيءٍ هناك، لم تلقي السلام على رفيقه حتى لكنه لاحظ شرودها فعَلم أن «عمر» أخبرها، استأذن الجدة ليذهب إلى خالته في المطبخ فأذنت له، ما إن أقترب ألقى السلام كي تنتبه التفتت إليه فقال:

– لا تخافي عليه، الله يحفظنا يا خالة.

– ونعم بالله يا «رقيم»، لكنني أمٌّ تخاف من رؤية الأخبار فقط، فما سيحدث لي إن ذهب؟!

– لن أتركه يبتعد عني أعدك.

– خائفة عليكما معًا، كيف تقبلت أمك كلامك هذا؟

– لا نملك خيارًا آخر يا خالتي.

دارت الدنيا أمام عينيها كأن هناك غيمة طافت بالمكان وحجبت عنها الرؤية فسقطت على الأرض، نادى على «عمر» الذي جاءه مهرولًا ليحملها إلى غرفتها مباشرة مع أخته، ويبدأ في إنعاشها، لم تستجب فاتصل «رقيم» بالإسعاف.

* * *

بدأت الشمس تسدل أستارها لتصبح السماء لوحة بديعة بدرجات متفاوتة من ألوان الغسق الربانية، يجلس «أمان» يدون كل ما يراه أمام عينيه وكل ما يدور في المدينة، يصور ويوثق بعيون مرتقبة مراقبة لكل ما يدور هنا في أرض الرباط، يكتب «عسقلان تنتفض» أي انتفاضة يقصد؟ محى الكلمات ثم كتب أخرى «إبادة عرقية يتعرض لها السكان» ثم محى الكلمات مرة أخرى فكتب «حرب الوجود والتحرير بدأت وآن أن نحصد ثمارها»، أعجبته جملته الأخيرة منها، سيبدأ أن يروي سرديته للعالم أجمع، عمله كصحافي ومذيع على قنوات البث الفضائية جعل حماسه مشتعلًا ليقص حكاية أرضه للعرب والعجم لمن يظن أنه لا يعرف حقيقة الأمر.

منذ طفولته يرى الصحافيين رجال خارقين يتجولون ليلًا ونهارًا كي يلتقطوا الحقيقة أينما كانت وينقلون معاناة الشعوب المستضعفة إلى العالم، لكن هل العالم يؤمن بأن للمستضعفين الحق في الحياة كمن يسحقهم؟ هذا السؤال لم يجد له إجابة في صغره، ربما لأنه كان من الضعاف وليس الأقوياء، ها هنا في مخيم الشاطئ نشأ «أمان» وسط عائلته، أبٌ قعيد، أربعة إخوة ذكور يعملون ليوفروا المال الكافي لمعيشتهم، و «أمان» مع والديه وأختيه في المنزل لكي يقضي طلبات أمه حتى يعود الكبار، حياة لا يتمناها أحد لأطفاله، الناس هنا كأنهم في سجن كبير، داخل هذا العالم الكبير سورٌ عالٍ عزلهم عن العالم كله من كل الاتجاهات، لا تفتح لهم إلا معابر على حدود البلاد حولهم، ولا تُفتح دومًا بل بقرارات مسبقة ويدفعون مقابل دخولهم، كأنهم ليسوا مثل بقية البشر، تم عزلهم ليبقوا وحدهم ولا يحيوا حياة هانئة هادئة.

تخرج «أمان» من كلية الإعلام ليصبح صحافي محاولة منه إيصال معاناة شعبه المكلوم، وإخوته أحدهما معلم للغة العربية، الآخر مهندس معماري، واثنان طبيبان، كلهم من عائلة واحدة في بلدة صغيرة الحجم لكنها كبيرة المقام، حيث تعيد هي أمجاد الأمة وعزها.

نادته أمه من الخيمة التي يقيمون فيها، التفت إلى صوتها فهرول إليها، وجد أمه تبكي حال أبيه، أبوه مُتعب من شدة الجوع والعطش، لا شيء يدخل إلى هنا، يتم تجويعهم حد الموت، طلبت منه أن يتصل بأحد إخوته ففعل لكنه يعلم أن أخاه لن يصل في الوقت المناسب، إن أباه في سكرات الموت، جلس جواره يلقنه الشهادتين.

والدته تبكي في صمت، دموع تنهمر دون أن ترف عينها لحظة، لقد خسرت كل شيء فلم يعد للصراخ سبيل لإعادة ما فُقد، ينظر «أمان» إلى أبيه نظرة قهر وحسرة، يشعر أنه مُقصر بحقه، لم تخرج دمعة واحدة منه، مغلوب على أمره، لا شيء هنا سوى الحزن ورائحة الموت التي تفوح في أرجاء المدينة، اتصل رفيقه عليه يخبره أنه قادم وقد جلب طعام لوالديه، تهلل وسأله أين هو فلما عَلِم بقربه خرج من الخيمة باتجاهه ليأخذه لأبيه لعله يحيا من جديد، قابله فتناول منه ماء وعصير وعاد بسرعة، نجح في جعل أبيه يرتشف بعض الماء ثم جلس يُشربه بعض العصير، لكن كانت رشفات الماء آخر ما نزل جوفه في الدنيا، تحجرت مقلتاه وتيبس جسده الذي لم يعد جسد رجل بل بدا كطفل هزيل، من شدة الجوع أصبح يظهر حجم عظامه، ارتاح أبيه وهم لن يجدوا راحة بعده، فما كان من العدو إلا أن يظل يقصف ويقتل، واساه

رفيقه وساعده ليجلب كفنًا لأبيه وما أكثرها هنا، لقد جاءت بكثرة في صورة مساعدات دولية، كأن العالم يخبرهم أن يموتوا في صمت.

ربت صديقه على كتفه قائلًا:

- لا تحزن، لقد ارتاح يا «أمان».

ينظر إليه رفيقه، يرى ضآلة حجمه بعد أن كان شابًّا طويلًا، أخذ عيني أمه الخضراء بلون الزيتون، وبشرتها البرونزية، رغم الجوع والحاجة إلا أن ملامحهم ما زالت جميلة.

لا شيء يوصف فقدان الأب لا سيما إن كان في وقت حرب وجوع، سيظل يشعر بالتقصير في حقه مهما طالت الأيام، ربتت على يده يدٌ صغيرة حانية تقول:

- خالي، لا تبكِ، لقد نجا جدي ونحن لم ننجو بعد.

صدقت الصغيرة التي قد لا تدرك معنى الكلام المتداول بين الناس والتقطته أذنها لتعيده وقتما تحتاج، مسح دمعة من عينيها فأخبرها أن كل شيء سيكون بخير واحتضنها بشدة، يتفقدها بعينيه ملابسها خفيفة؛ لأنه لا يستطيع أن يجلب لها سُترة شتوية في هذا الجو البارد، العجز يؤلمه ويكسر روحه.

جاء إخوته ليلقوا نظرة الوداع على أباهم، وأخذوه ليقوموا بدفنه، موقف تقشعر له الأبدان، حفرة كبيرة كأنها خندق ممتلئ بالجثث، ضحايا الحرب منهم من هو معروف والآخر مجهول الهوية، عائلة كاملة دفنت في هذه الحفرة الشاسعة، وهي لست أول عائلة تمحى من سجلات المدينة النابضة بالموت.

* * *

تُصدر أنات متتالية ليلًا، تعبت عظامها وجاعت، تشعر بالجوع والعطش وهذا الذي يحبسها هنا لا يريد تقديم أي طعام، سمعت صوت الباب يُفتح، لفتت وجهها تستمع فعصبة عينيها تُحيل بينها وبين الرؤية، شعرت بيد على كتفها فانتفضت خوفًا، قالت لها: «لا تخافي، لن أؤذيك، جلبت لك الماء والطعام، سأزيل رباط فمك، فضلًا لا تصرخي كي لا تؤذيني».

أطعمتها بيدها حتى شبعت ثم أعادت رباط فمها وما إن التفتت لتخرج حتى وجدت سيدها أمامها، ابتلعت غصة في حلقها، ألقت نفسها أسفل قدميه تتوسل إليه ألا يؤذيها، لكنه نهرها وأمسك شعرها لتصرخ هي، خلع حزامه وظل يضربها حتى نزف جسدها، لم يرحم صراخها ولا الألم التي تشعر به، سحبها من ذراعها إلى خارج الغرفة وربطها في عمود وقال للحارس: «لا يُسمح لها بتناول الطعام حتى تموت، إن رأيتك تطعمها سأقتلك».

نظر إليها الحارس يسألها: «لماذا فعلتِ هذا بنفسك؟».

لم تستطع التفوه بكلمة، نزلت من عينيها دموع تغسل آثار الدم من وجهها.

في صباح اليوم التالي نزل السيد ليرى ما يحدث بالأسفل، وجد الفتاة التي ربطها قد تعبت من شدة النزف، بصق عليها ثم أمر الحارس أن يفك قيدها ويضعها في الحديقة حتى يذهب إليها، نفذ الحارس أمره وذهب من فوره.

فتح الباب ليلقي نظرة عليها، ما إن اقترب منها، حتى وجد جسد ناري أمامه فاحترقت يده ليصدر صرخة مدوية، لكنه لم يتراجع، وضع يده مرة

أخرى فشعر بنفس الحرارة وسقط على الأرض، يتساءل من هذه الفتاة؟ وكيف استطاعت أن تفعل هذا به؟

ظهر أمامه شخص له عينان حمراوان وجسده كالجمر المشتعل، ازدرد ريقه بصعوبة قائلًا:

– من أنت أرجوك ارحمني!

قال له: «لا تقترب منها، وإلا سأحرقكم جميعًا».

أطرق برأسه ممسكًا يده التي كاد أن يسقط جلدها، حاول الخروج من الغرفة مسرعًا، لكن فتحت له فجوة كبيرة في حائط الغرفة بها بركان ثائر أخبره أنه سيقذفه داخل الفجوة إن لم يعيدها، خاف أن يكون كاذبًا فطلب منه ضمانات، ثم صمت بعد أن نظر إليه بغضب وخرج من الغرفة، تعجبت «صفية» لخوفه وخروجه بهذه السرعة بعدما سمعت صوته يقترب.

صعد إلى الحديقة يستجوب الفتاة التي أطعمتها من طلب منها فعل هذا فصمتت، كرر سؤاله فلما يئس أطلق على رأسها رصاصة وماتت من فورها، ابتلعت زوجته غصة في حلقها خوفًا مما قد يحدث لها وللفتاة الحبيسة.

* * *

في ردهة المشفى الكل مترقب متوتر، ما حالها الآن؟ ماذا حدث لها لتسقط هكذا فجأة؟ ينتظرون تفسير الطبيب بعد كل التحاليل التي أجريت بالأمس.

تهز ساقيها متوترة خوفًا على أمها، وأخيها يسير أمامها ذهابًا وإيابًا لا يقف ساكنًا، أما أبوهم جالس يبدو عليه الاطمئنان، خرج «رقيم» من الغرفة يطمئنهم بأنها بخير مجرد دوار بسيط، لكن الحزن المخيم على ملامحه جعل «عمر» يشعر أنه يخفي أكثر مما قال، فأخذه إلى جانب يسأله فأخبره بما يضمره في نفسه قال:

- يشك الطبيب أن قلبها ليس بخير.

توجم وجهه اختفى قلقه وجلس على أقرب مقعد ساكنًا لم يتحدث، وضع «رقيم» يده على كتفه قائلًا:

- لا تقلق، ستظل هنا بضعة أيام للفحص الشامل، لكن لم والدك هادئ لهذا الحد أخشى أن يصيبه مكروه؟!

توجه «عمر» إلى أبيه يطمئن عليه ويطمئنه، جلس بجواره صامتًا لم يتكلم، فقط وضع يده على ركبته، ظلا هكذا مدة حتى قاطع هذا الهدوء خروج الطبيب من غرفة الرعاية، قام «كيرال» يطمئن منه، أخبره الطبيب أنها استفاقت لكنها ستبقى تحت الملاحظة لبضعة أيام حيث يمكنهم القيام بعدة فحوصات طبية لها لأن توقف قلبها فجأة هكذا مؤشر خطير، بالرغم من عودته إلى العمل بصورة طبيعية الآن لكن يعد هذا طبيًّا شيئًا خطيرًا، وافق «كيرال» على بقائها كما يريد الطبيب لكنهم طلبوا رؤيتها فرفض وأخبرهم أنهم يمكنهم رؤيتها من الخارج فقط، وفي الغد بعد أن يطمئن عليها يمكنهم رؤيتها إن خرجت من الرعاية المركزة، طلب منهم الرحيل والقدوم غدًا لأن وجودهم هنا لن يفيدها بشيء.

دنا «كيرال» من ولديه وأمرهما بالعودة إلى المنزل لطمأنة جدتهما، رفضت «عائشة» العودة تريد البقاء بجوار أمها حتى لو لم تدخل إليها، طلب منها أخيها العودة فهو يتدرب هنا مع رفيقه على أي حال وسيسمح له بالبقاء، أما هي عليها الذهاب كي لا تقلق الجدة، ترقرقت دمعة في عينيها فمسحها «عمر» وهو يهدئها ألا تخاف سيبقى بجوارها طوال الليل ومعه «رقيم»، قال:

– اذهبي مع أبي، سأبقى حتى الصباح أمام غرفتها.

أخذها أبيها من يدها ولم يتحدث، يؤنب نفسه لأنه نهر زوجته، ماذا إن حدث لها مكروه بسببه؟ ماذا سيفعل من دونها؟

زفر بضيق وهو يقول:

– لن أسامح نفسي إن حدث لها مكروه.

خرجا من المشفى، ذهبا إلى أقرب مقهى وجلسا طلبا الشاي وبدأ «كيرال» يتحدث مع ابنته فعلمت عن رحلة أبيها القادمة ولِم تعبت أمها.

أخبرته أنها تقبل طلب الزواج، لا أحد يعلم ما في قلب «عائشة» كأنها زهرة منغلقة على نفسها، قَبِلت «أوس» لأنها تعلم أخلاقه ولأنها رأت فيه شهامة وتعلم أنه سيحافظ عليها لأنه رجل يعلم معنى القوامة، لكنها لا تعلم أنه عنيد وقد لا يوافق على كل ما تطلبه منه إذا رأى أنه شيء غير مهم.

نظر إليها يسألها ويطمئن أن هذا ما تريده هي، أخبرته أنه رأيها وحدها، بعد تفكير طويل واستشارات كثيرة.

ربت «كيرال» على كتفها قائلًا:

- سيفرح «أوس» كثيرًا، سأخبره بموافقتك ليأتي إلينا.

طلبت منه ألا يجعله يأتي إلى هنا لأنها تريد الزواج هناك في ليبيا، تعجب من طلبها المفاجئ والغريب، لم يكن يتوقع ما قالت، كيف تتزوج هناك؟ من أخبرها أنهم سيوافقون على هذا الأمر؟

أبدى رفضه لطلبها المفاجئ فصمتت حتى انتهيا من تناول الشاي وقاما للعودة إلى المنزل.

جالسة على الأريكة في بهو المنزل تُسبح وتدعو الله أن يلطف بزوجة ابنها، تنظر إلى الساعة كل لحظة، تنتظر مكالمة أو مجيء شخص منهم، خرجت ببطء إلى النافذة، لم تعد تقوى على التحرك بسرعة، وقفت تلقي نظرة من الأعلى لعلها تجد أحدًا منهم، رن هاتف المنزل ذهبت لتجيب على المتصل كان «عمر» يطمئنها، أخبرها بالوضع الصحي وأنه سيظل جوار أمه حتى تتحسن وأن والده وأخته في طريقهما إلى المنزل، اطمأنت قليلًا بعد مكالمته لكن قلبها لن يهدأ حتى تراهم أمام عينيها جميعًا، بعد وصولهما إلى المنزل دخل كل منهما غرفته بعد أن أخبرا «ثويبة» عن حالة «فاتن».

* * *

يمسك نفسه عن سب هذا العجوز الخرف، ما زال يحاول التماسك أمامه، يخبره أنه لن يقدم أي دماء بشرية مثلما يقول، فليحسم أمره إن كان يستطيع أن يفعل ما يريد دون طلبه هذا أم لا، صمت الكاهن يفكر، بعد ذلك أخبره أنه قد يتمكن إذا قام بذبح شيء لهم، أخبره «منصور» أنه لا يهتم فليفعل هو ما يريد بنفسه أما هو سيدفع مقابل مادي فقط.

استدار «منصور» ليترك المكان والعجوز ينظر إليه، كان يعلم أنه سيرفض ما قال لكنه أراد أن يخبره فقط، حدثه يطلب منه البقاء سيعرض عليه شيء آخر، فسأله لِمَ يريد الذهاب إلى هناك؟ وعمَّ سيبحث؟

أخبره أن لا شأن له بذلك، فهو قادم ليدخله بأجر مدفوع ليس له الحق في التدخل فيما سيفعل هناك، ضحك الكاهن مما يقوله فقال:

- يمكنني معرفة ما ستفعله هناك وأنت تعلم هذا جيدًا.
- اعلمه بطرقك إذَنْ، أما أنا لن أخبرك بشيءٍ لا أريده.
- حسنًا، لا بأس اجلس لأخبرك بالطلبات.

جلس «منصور» يخبره بشروطه أولًا وأنه لن يسبب الأذى لأي إنسان من أجل دخول هذه المدينة، أخبره الكاهن أنه سيتوجب عليه تقديم قربان ليس بشريًّا لأنه سيدخله عبر بوابة «آبولونيا» ويجب على من يدخل تقديم قربان، سأله «منصور» عمَّ تكون آبولونيا فأخبره أنها بوابة قديمة لا يستطيع الدخول من خلالها إلا من على دراية بسحر أهلها الذي يبرعون فيه دون غيرهم ولا ينافسهم فيه أحد على سطح الأرض.

* * *

تحمل طعامًا دون أن يراها أحد خاصة هذا الرجل البغيض نتن الرائحة، فتحت الباب بهدوء كي لا يصل صوت صريره إلى أذنه، دنت من «صفية» تخبرها أنها جلبت لها الطعام وستجد طريقة لإخراجها في خلال يومين على الأكثر، لكن عليها أن تخبره أنها حامل كي لا يحاول إجبارها على فعل ما يريد

منها، هزت رأسها في خوف شديد، جلست المرأة تطعمها بيدها كي لا تفك قيدها، ما إن انتهت خرجت ببطء كما دخلت، هناك من رأى ما حدث ويبدو أنه سيساومها على ما فعلت دون إذن زعيمهم، أمسك يدها مبتسمًا يخبرها بما رأى، توجست خيفة منه لكنه سحبها إلى غرفة مظلمة.

همست متوترة: «ماذا تريد مني؟».

ضحك بجانب فمه قائلًا: «تعرفين ما أريد، لقد رأيت وسمعت ما أخبرتها به، إذا لم تعطيني ما أريد سأخبره ولن يستطيع أحد إنقاذك من بين يديه».

طلبت منه أن يخفض صوته وستفعل ما يريد لكن لمرة واحدة فقط، لأنه غير مسموح لها بأن تفعل ما يريد فهو ليس من ضيوفهم المميزين، سكت وطلب منها البقاء حتى الصباح في غرفته التي يستأجرها من زوجها، وافقت على شرط ألا يخبره بما رأى، بدأت تحضر له مشروبًا مميزًا كما أخبرته فوضعت له فيه حبة منوم دون أن يلاحظ، بدأ يقترب منها ويتلمس يدها ثم سقط على الفراش نائمًا، سحبت سكينًا جوارها فقتلته وبصقت عليه، لطخت يدها بدمه وخرجت تصرخ من الغرفة:

- أنقذوني.

خرج الرجل مهرولًا بلباس نومه يسأل ماذا حدث؟ أخبرته بما صار وأنه حاول الاقتراب منها رغمًا عنها وسحبها إلى غرفته فقتلته دفاعًا عن نفسها، جثا على الأرض أمام جثته يقول:

– إنه مستوطن يهودي، لقد جلبت لي مشكلة كبرى ماذا أفعل الآن؟

– ندفنه في الساحة الخلفية، لن يلاحظ أحد أي شيء كمن سبقه يا سيدي، وندفن أغراضه معه.

نعتها بالغباء ولطمها على وجهها فسقطت على الأرض، نزل إليها يسحبها من شعرها الطويل إلى غرفته حتى ينتهي من دفن هذا الخنزير، ليعاقبها على فعلتها حينما يعود، غاب ساعة استغرق فيها نبش قبر لهذا الرجل، ثم دخل ومعه سوط من الجلد، عاملها كحيوان عنده، لم يترك مكانًا في جسدها إلا أصابه السوط، كانت تصرخ وتبكي ليرحمها لكنه لم يفعل، ظل يجلدها حتى سكنت تمامًا، ثم نام إلى جوارها في الغرفة.

في الصباح الباكر فتحت عينيها المتورمة من البكاء وجدته يحتضنها، شخص مريض يجلدها بسوط حتى يدمي جسدها ثم يحتضنها لينام، أزاحت يده من على جسدها لتنهض فتمسك بها بكلتا يديه وقال بهمس:

– لن تنهضي حتى آمرك، سأعالج جروح جسدك حالما نستيقظ، كم مرة عليّ ضربك حتى تنتهي عن قتل الزبائن؟

أخرجت صوتًا خفيضًا متحشرجًا مع دمعة حارة نزلت من عينيها قائلة:

– لن أسلم نفسي لأحد هؤلاء الأنجاس ولا غيرهم، تزوجتني منذ وجدتني، لماذا تريد مني تلطيخ سمعتك بالرذيلة؟!

– نسيتِ كيف وجدتك؟ ولماذا تزوجتك؟

تذكرت هذا اليوم الذي وجدها فيه، كانت شابة لم تكمل السابعة عشرة من عمرها، بعد أن قتلوا أخاها الصغير الذي بقي لها بعد قصف منزلهم، عذبها الجنود وتركوها لتلقى مصيرها وحدها ربما تموت من الجوع أو تقتل نفسها، انهمرت دموعها أكثر، مسحها لها من يعذبها لأنه تخلى عن كل شيء، شرفه وأرضه وعرضه، حاولت الهرب منه أكثر من مرة لكن كل محاولاتها باءت بالفشل، فاستسلمت لأمرها الواقع ولم تفعلها مرة أخرى، ومنذ أن بدأ بخطف الفتيات أو شرائهم من الخاطفين أخذت عهدًا على نفسها ألا تجعل إحداهن تفعل شيئًا من هذا، فكانت تقوم بتهريبهن دون علمه في معظم الأوقات، ومن لم تستطع إنقاذها قبل أن يحدث لها شيء كانت تأخذها بعد ما حدث وتعالجها وتقدم لها كل أنواع الدعم الذي تحتاج إليه ثم تخرجها من المكان دون علمه.

تتذكر ما تفعل فتبكي وتتوجع زيادة على وجعها، فقال:

– اتصلت بالطبيب سيأتي، لا تبكي، لكن كان عليَّ فعل هذا بكِ حتى لا تكرري الأمر مرة أخرى.

قالت بخفوت وخذلان:

– أكرهك وأنت تعلم هذا، لماذا تبقيني على اسمك كزوجة وأنت تعلم أنني لا أطيق النظر في وجهك بسبب أفعالك القذرة؟

– لن يقبل بكِ أحد، إن تركتك لن يدخلك أحد منزله، ستكونين مشردة في شوارع الأردن لن تجدي ما تأكلين.

– لا يهمني، فقط أطلقني حررني من هذا القيد.

– لن أفعل لأنني سأحتاج إليكِ يومًا ما.

فيما سيحتاج إليها هذا الرجل الذي نُزعت الرحمة من قلبه، تمنت لو أنها ماتت يوم مات أهلها في مذبحة جنين عام 2002م، لكنها لم تمت واختطفت وتم تهريبها إلى الأردن لتعاني كل هذه المصائب التي وقعت على دماغها، لكنها ما زالت على عهدها باقية، ستقتل كل من تراه أمامها منهم.

* * *

الساعة التاسعة صباحًا، دخل البروفيسور إلى قاعة المحاضرات ليلقي محاضرته الأخيرة قبل سفره، ألقى السلام على طلابه فأجابوه وبدأ كل منهم يسأل على حِدة أسئلة عن تاريخ الأرض المقدسة والمزاعم حولها، حتى سألت إحدى الطالبات سؤالًا أخرجه عن صمته.

– بروفيسور فضلًا ما عدد المذابح التي ارتكبها الاحتلال على مدار سنواته؟

– أحصى المؤرخون الفلسطينيون حوالي 80 منها، مذبحة قرية أبو شوشة ومذبحة الطنطورة 1948م، صبرا وشاتيلا 1982 بلبنان في حق اللاجئين الفلسطينيين.

والآن مجازر أكثر منذ السابع من أكتوبر كلنا نعيشها يومًا بيوم، بث حي نراه كأنه فيلم رعب يتكرر يوميًّا، نتمنى أن ينتهي قبل النوم لكننا نستيقظ على بدايته من جديد.

- لكن لماذا لا نفعل شيئًا لهم؟!

- إننا لسنا جديرين بهذا الشرف العظيم.

خيم الحزن على الجميع، الكل يتأثر بما يُقال وما يُسمع وليس هناك من اعتاد كما يظن البعض، إنما هذه رحمة وضعها الله في قلوب عباده، كيف يمكن لشخص أن يرى أمام عينيه نصيب أبٍ من الأشلاء يوزن بالكيلوجرامات ولا يتألم مثله، لا أحد يعلم مدى صعوبة الأمر إلا من يعيشه هناك.

يجلس بين الصفوف، من لا يرى أن هؤلاء لهم الحق في الحياة مثله، رفع يده فأذن له البروفيسور بالتحدث فقال:

- عفوًا يا أستاذي، لا أعلم ما فائدة التحدث عن هذه الحرب، ليس لنا دخل بها، هي في دولة أخرى بعيدة عنا؟!

سأله «كيرال»:

- ما اسمك يا بني؟

- رامون، هذا اسمي، أنا يهودي الأصل لكنني لم أعش هناك يومًا.

اشمأز الجميع حينما تكلم هذا الشاب ونظروا له بازدراء، سمعه البروفيسور إلى النهاية ثم قال له:

- ألم تحركك مشاهد الأطفال المبتورين، ولا أمهاتهم ولا أي شيء هناك؟!

- أنا لا أعرفهم حتى أشعر بهم أو أخاف عليهم.

صفق له البروفيسور طالبًا منه أن يخرج من محاضرته لأنه لا يريده هنا

مرة أخرى، حاول الاعتراض فأخبره «كيرال» أنه له الحق في طرده إن أساء الأدب مع معلمه، وهو فعل هذا الآن بمجرد وقوفه والكلام معه بتلك الطريقة المثيرة للغضب، خرج الشاب ومعه رفيقته، صفق الطلاب في سرور للبروفيسور الذي ما إن غادرا حتى طلب من الأمن أن يرى هوياتهم لأنه سيقدم طلبًا للجامعة لمنعهما من دخولها مرة أخرى، أكمل المحاضرة ورحل بعد ساعتين تقريبًا وسأل عن الطالب وزميلته، لكن المفاجأة أنه لم يكن هناك شاب يدعى «رامون» مقيدًا في جامعتهم، ازدرد ريقه وهو يخبر الموظف المختص أن يبحث جيدًا عنه لأنه تحدث أمام الجميع في غرفة التدريس، عاد «كيرال» إلى منزله متعبًا، ما إن جلس حتى اتصل بابنه يطمئن على أمه ويسأله متى يستطيع رؤيتها.

طمأنه «عمر» على صحتها وأنهم بدؤوا الفحوصات الطبية الشاملة لها، وقد تخرج بعد غد إن كانت النتائج إيجابية، أراد أن يذهب إليها لكنه أخبره أنه لا يمكنه لأنها ما زالت في الرعاية، أغلق معه وطمأن أمه وابنته، دخل إلى غرفته حتى يرتاح قليلًا حتى صلاة العصر، فتح التلفاز ليرى الأخبار فوجد المشاهد ذاتها التي تُعاد، مدارس تقصف، مستشفيات تجتاح، جثث تدفن في مقابر جماعية ثم تنبش بعد أيام قليلة من قِبل جنود المحتل، أطفأ التلفاز وأخرج كتابًا يقرأ فيه عن فتح فلسطين الإسلامي، دق باب غرفته فإذا بـ «عائشة» تسأله:

- هل أخبرت «أوس» بقراري يا أبي؟

- نسيت تمامًا، سامحيني يا ابنتي.

- لا بأس، ماذا تقرأ الآن؟

- عن الفتوحات، كما اعتدت مؤخرًا.

- عن فتح الشام كاملة أم فلسطين؟

- أريد أن أتذكر كل شيء عن فتح فلسطين، لذا أقرأ عنها.

طلبت منه أن تبقى إلى جواره وهو يقرأ ليناقشها فيما كُتب ويعلمها، فإنما يعيش الإنسان ليتعلم.

بدأ يخبرها بالفتوحات التي مرت على الأرض المقدسة قائلًا: «بدأ حصار القدس في عهد عمر بن الخطاب بعد معركة اليرموك التي كانت سببًا رئيسيًّا لفتوحات الشام، حينما أرسل الجيش بقيادة أبي عبيدة بن الجراح في شوال 15هـ عام 636م، حوصرت ستة أشهر ثم استسلم البطريرك صفرونيوس بشرط قدوم أمير المؤمنين عمر ﷺ ليتسلم مفاتيحها بنفسه، وعند وصول عمر إلى القدس، تمت صياغة العهدة العمرية واستسلمت المدينة وأعطيت ضمانات الحرية المدنية والدينية للمسيحيين في مقابل الجزية، وقد وقع عليها الخليفة عمر نيابة عن المسلمين، وشهدها خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان، وفي أواخر نيسان/ أبريل 637م، استسلمت القدس رسميًّا للمسلمين، ظل حكم المسلمين لبيت المقدس نحو 400 عام حتى أول الحملات الصليبية 1099م.

قالت عائشة:

– فُتحت مرات عدة ورغم ذلك ما زالت في حالة حرب دائمة بسبب هذا المحتل، ما يحير عقلي يا أبي أنهم كاذبون، ويقولون للعالم إنهم على حق وإنها أرضهم، والعجيب أن المعظم يصدقهم.

– لا تتعجبي، فمن يصدق له مصالح دنيوية معهم، إنهم يتحكمون في معظم البلدان، ولن تجدي أحد يعين على الدماء غيرهم.

رن هاتف «كيرال» فأجاب عليه بعد أن أشار إلى ابنته بالانصراف، أخبره «منصور» بما يريد كاهن الأوراس فوافق على طلبه، وسأله هل أخبر أحدًا، أم ما زال كل شيءٍ سرًّا؟

طمأنه بأن الأمر يسير بحسب الخطة، عليهم الآن إخبار «أوس» بموعد رحلتهم إلى الجزائر ثم يقابلون الكاهن ليفعل ما يريدون، سمعت «عائشة» مكالمة أبيها من أمام الباب لأنها شعرت أن هناك ما يخفيه عنها، وبختها جدتها حين رأتها تتنصت عليه، وسحبتها أمامها إلى الغرفة، سألتها عمَّا تفعل فقالت:

– أبي يريد الذهاب في رحلة جديدة، لذا مرضت أمي؟

– مرضت أمك لخوفها على «عمر»، وهو أخبرني بنفسه.

لم تكن تعلم بأمر أخيها قبل الآن، عرفت أنه سيذهب كطبيب في مجموعة الإغاثة الإنسانية إلى غزة، ازدرت ريقها خوفًا عليه فهي ترى ما يحدث، علمت أنه مصمم على الذهاب وأباهما لم يمنعه، جلست على الكرسي واضعة رأسها بين كفيها خوفًا ورعبًا، طمأنتها الجدة بقولها لن يصيبه إلا ما

كتبه الله يا «عائش»، رفعت عينيها تنظر إلى الجدة بدموع تترقرق في مقلتيها، فجلست تمسح على رأسها وتذهب عنها الحزن ليطمئن قلبها ولا تهلع.

* * *

جالس يتفكر في أمه وما حدث لها لمجرد علمها برحلته، ماذا إن أصابه مكروه؟ هل ستصمد دونه؟ تذكر ما يراه وكيف تقول النساء «فدا الأقصى» هؤلاء يعلمون أنهم على حق وأنهم أصحابه لا هم، إنها هذه الحرب هي حرب هوية ووجود ليست كأي حرب سابقة، إنها حرب التحرير التي انتظرها الجميع.

جاء «رقيم» أخرجه من شروده وهو يخبره أنه أدرج اسمه ضمن قائمة المتطوعين في حملة الإغاثة، وابتسم له وهو يقول:

– صديقي طلب مني إحضار قهوة لأنهم يشتاقون إليها، أتعلم يا «عمر»، سيأخذ كل واحد منا أشياء معه وأنت ستفعل مثلنا، سنجهز لهم بعض ما يشتهون كي نثاب على هذا، لعل هذا ينفعنا إن سُئلنا أمام الله ما فعلنا لهم.

لمعت عينا «عمر» وزفر بضيق وهو يقول:

– هذا ما أخشاه، ألا يكون لدي إجابة لهذا السؤال.

بدآ يحلمان معًا برحلتهما، كيف ستكون وهل سيسمح لهما بزيارة المسجد الأقصى أم لا، وهل يمكنهما الصلاة فيه، أفكار تعبث برأسيهما لا تتوقف أمِلًا بأن هذا كله سيحدث حين يضعون أقدامهم هنا مع حملة الإغاثة، سأل «عمر» بحماسة:

متى سنذهب إلى هناك؟

- في خلال هذا الأسبوع إن شاء الله تنتهي الأوراق الرسمية.

تمنى «عمر» أن تتحسن أمه قبل سفره، أخبره «رقيم» أن نتائجها جيدة وقد تخرج بعد يومين إن شاء الله، إن لم يحدث شيء جديد، قاما ليذهبا للنوم في غرفة الأطباء بعد أن غط «عمر» في نومه، وقبيل الفجر بدقائق معدودة رأى نفسه في غرفة دون سقف بل تظهر منها السماء والسحب متراصة كالقطن في لوحة بديعة، جالس على كرسي ومعه شخص ملثم وأمامهما طاولة عليها صورة مرسومة لطفل صغير رسم فيها الأقصى وجواره طائر أبيض يحمل غصن زيتون في فمه، وصاروخ محلي الصنع لُصق عليه ورقة بيضاء كتب عليها «عمر» اسمه، نظر إلى الملثم يسأله إلى أين سيتم توجيهه فقال له:

- إلى منتصف تل أبيب.

وطلب منه الملثم أن يلصق اللوحة المرسومة على الصاروخ ولما سأل لماذا يلصقها عليه، أخبره أنها لطفل شهيد رُسمت قبل ساعات وتم قصفه وأهله، ولم يبق إلا هو ورسمته، صوب عمر الصاروخ فأصاب ما أصاب بانفجار كبير لم يتخيله أحد، أصوات التكبير والتهليل تصدح بالمكان كله، لقد أصبنا المكان المنشود.

استيقظ «عمر» مستبشرًا بما رأى، مسح وجهه وسمع آذان الفجر فقام وأيقظ صديقه ليذهبا إلى الصلاة وقص عليه رؤيته فاستبشر خيرًا.

* * *

يتطلع إلى السماء، بدا كأنه يعد النجوم التي سطعت كأنها تؤنسه وتواسيه على ما يجد في قلبه من قلق، تخبره ألا يقلق، تحكي له حكايات وهي تنظر إليه من السماء، تذكر أمه وهي تخبره أنها تظن أن النجوم والشمس والقمر ينظرون على البشر من الأعلى ويشعرون بمعاناتهم ويحكونها لبعضهم بعضًا، تنهد كأنه يئن من وجع به، نزلت دمعة حارة منه لتذكره وفاة أمه وكل من يحب، دعا لهم جميعًا بالرحمة، أخرجه عن هذا رنين هاتفه المفاجئ أجاب بدهشة:

عائش! كيف حالك؟

- الحمد لله بخير، كيف حال «ثريا» والطفلان، اتصلت لكنها لم تجب؟

- بخير في نعم الله نحن غارقون.

- هل هاتفك أبي، أم نسي؟

- لم يفعل، هل لأجل الرحلة؟

- لا يريد أن يصطحبني هذه المرة.

- هذا أسلم لنا والله.

أكملت حديثها بسرعة وأغلقت وهي تستشيط غضبًا، كانت تظن أنه سيأخذها في أي رحلة يقوم بها، يبدو أنها يجب أن تفكر في أمر الزواج منه مرة أخرى.

رن هاتف والدها فسمعته، خرجت لترى من المتصل فوجدته «أوس» وكان أبيها يخبره بموافقتها على الزواج منه، صعقت لأنها لم تستطع إخباره

أنها تراجعت عن الفكرة بعد مكالمته، الآن لن تستطيع فعل شيء، يبدو أنها وقعت في الفخ، أكمل «كيرال» حديثه فأخبر «أوس» بأنهم ستبدأ رحلتهم من الجزائر ثم يتوجهون إلى مدينة البتراء في الأردن وهناك سيقابلون شخصًا يوصلهم إلى مكانهم المنشود، وقبل هذا ستتم خطبته و«عائش» إذا تحسن حال زوجته مباشرة.

* * *

ينظر إلى زوجته وطفليه، يراها طفلة مثلهم لأنها كَبُرت أمام عينيه، دومًا كان يريد أن يزوجها لأخيه الصغير، لكنها تزوجته هو بعد أن فارقت أختها الحياة، يتفكر كيف يمكنه أن يكن زوجًا لفتاة تصغره بثمانية عشر عامًا، لاحظت شروده وهو ينظر إليهم فتحدثت إليه تسأله ما به لكنه لم يجب، لا يريد أن يحزنها، كلما تحدث معها وهو يفعل ذلك، لم يتوقع أن تُصر هكذا على الزواج منه، طلب منها أن تصنع له القهوة وعاد ليصمت مرة أخرى، اتصل على «فراس» فقال:

كيف حالك يا أخي؟

رد وهو يغتصب الكلمات لتخرج من بين شفتيه:

- بخير الحمد لله، وأنتم؟

- بخير يا أخي، أريد مقابلتك والتحدث معك.

- تعالَ إلى المنزل، لم أغير عنواني يا «منصور».

أخبره أنه سيذهب إليه بعد ساعة لأنه يريده في موضوع هام، بعد ساعة ونصف تقريبًا وصل إلى أخيه، احتضنه بشدة، لم يره منذ فترة طويلة، لكمه في كتفه يسأله لِمَ لا تأتي منذ أن تزوجت يا أخي؟

أدار «فراس» وجهه ولم يجيبه فقال له: «أنت تريدها أليس كذلك؟!».

نظر إليه ولم يجب عليه، كان «منصور» يستحثه على الحديث يحاول إخراج الكلمات منه إخراجًا، لكن الآخر لم يفعل ما يريد، ظل محافظًا على صمته، حتى قال له أخيه:

– أنا لم ولن أعتبرها زوجة، هي طفلة تربت أمام عيني، تزوجتها لأجل إصرارها وعندما رحلت أنت عن المنزل علمت أنك تحبها وأنني أخطأت حين طاوعتها، سامحني يا أخي.

– ماذا سيحدث إن سامحتك؟

– سأترك «أفنان» أنا لا أريدها، هي كانت مُصرة بطريقة غريبة، وأخوها أوصاني فلم يكن لدي خيار آخر، وأنت حين سألتك تريدها لم تجب، ماذا كنت أفعل أمام كل هذا؟ لا تلومني وقد سألتك يا «فراس» وقلت لا أريدها.

– ماذا كنت تريدني أن أفعل حين أراها تطلب منك الزواج بإلحاح وهي تعلم أنني أحبها؟ هل أتوسل إليها لتصمت؟ لا أعلم أين ذهب عقلها حين فعلت هذا؟!

– إنها صغيرة لا تعلم شيئًا، تحاول تقليد أختها لكنها لا تصلح حتى لهذا، كانت أم سالم مختلفة ولن أجد مثلها يومًا.

– الآن سأسافر مع بروفيسور «كيرال» إلى الأردن قريبًا، كنت أريد أن أطلقها قبل سفري ولقد سألت عن الأمر لأنني فقط عقدت القران عليها، ليس لها عدة ويمكنك أن تتزوجها بعد ذلك.

– لم ستسافر؟ رحلة جديدة!

– امرأة خُطفت من مصر اسمها «صفية»، وجدتها عائلة في الأردن لكنها اختفت منذ أيام تاركة طفلها هناك، سنذهب للبحث عنها.

– لا تحتاج إليَّ معك إذَنْ؟

– لا، ستكون أنت هنا مع الأولاد و «أفنان»، تزوجها يا أخي، سأتركهم في أمانتك.

نظر إليه فراس بخوف، لا يظن أن أفنان ستوافق على ما يقول، هي عنيدة ولا تطيع أحدًا بسهولة، لكنه يعرف أنها تطيع منصور لأنها تربت على يديه، لكنه شعر بريبة في أخيه، يظن أنه يخفي عنه شيئًا ينوي فعله.

* * *

يتقلب في فراشه على غير عادته، يتمتم بكلمات غير مفهومة، يرى أمامه أخيه تحيط به فجوة كبيرة سوداء تبتلعه بداخلها وهو يحاول أن يقاوم قوة سحبها، لكنه لا يستطيع، بدا يعتصر في أثناء دخوله كأنها تؤلم جسده، حاول أن يمد يده لأخيه فلم يستطع أخيه أن يمسك بها، نادى بصوتٍ عالٍ: «تاج أنقذني».

استيقظ «تاج» فزعًا شعرت به زوجته فطمأنها أنه بخير، نهض من فراشه ليطمئن على أخيه فوجده نائمًا، جبينه يتفصد عرقًا، يهمس بكلمات واضحة

له «لن يتركني أخي» حاول إيقاظه، ووضع يده عليه فصرخ بوجهه كائن أسود الوجه عيونه جاحظة بدت مخيفة بشرايين خضراء وحمراء بداخلها، ابتلع ريقه قائلًا «بسم الله» بصوتٍ عالٍ.

أيقظته «ثريا» من نومه قائلة: «هل ترى كابوس؟ هيا استيقظ وصلي ركعتين لترتاح في نومتك».

مسح النوم عن وجهه وهو متعجب أنه رأى حلمين في حلم، ثم قال «يا رب نجنا».

خرج من غرفته تفقد أخيه وجده نائمًا، ثم ذهب ليتوضأ ويصلى، وضع يده على قابس الحمام ليشعل المصباح فرأى هذا الوجه الذي يعلمه جيدًا أمامه، عاد إلى الخلف خطوتين متفاجئًا فقال له: «سيأتيني أخيك بنفسه».

ابتسم له بخبث واختفى تمامًا.

الفصل الثالث

المدينة الوردية

مدينة آية في الجمال، محفورة في الحجر الرملي الملون في صخور جبال وادي موسى الوردي، فسُميت بـ «المدينة الوردية».

يمكن الوصول إليها بالسيارة وبعد ذلك نسير بين جنبات مدينة شاهقة الارتفاع محفورة في الصخر، مختبئة خلف حاجز منيع من الجبال المتراصة التي بالكاد يسهل اختراقها يطلق عليه اسم السيق.

يجمع معلوماته عن المدينة التي سيزورها لكنه يشعر بالخذلان كأي شخص سوي، لا يجرؤ أن يتحدث عن هؤلاء على صفحات التواصل الاجتماعي خوفًا من الحجب التام، بل ويسلك طرقًا عدة لينشر عن إخوانه دون أن يتم حذف منشوره، فصور أن هذه الدول كالإخوة المحيطين بك من كل اتجاه، لكنهم لا يفعلون لك شيئًا، إخوة قُساة تقودهم المصالح المشتركة فقط، لا يأبه أحدهم جائع أخاه أم لا إلا من رحم ربي.

دقت الباب زوجة أخيه تسأله:

- هل ستخرج لتناول العشاء؟

- إن كان من الممكن أن تحضري لي الطعام هنا لأني مشغول قليلًا.

هزت رأسها وذهبت لتحضر له الطعام، وضعت له طبقًا كبيرًا مليئًا باللحم والأرز وبعض الخضر المسلوقة، شكرها ثم انصرفت، أما هو ما زال يفكر لمَ يذهبون إلى الأردن وهي ليست هناك؟ ومتى ستقام خطبته؟ كيف مرضت أمها فجأة؟ بدأ يشعر بالحزن وأنه لن يتزوجها كما يظن وأن هذه معوقات للزواج، وقعت عيناه على مقولة كتبت على صفحات التواصل

«ومن تمام حُسْنِ الظَّنِّ باللّـهِ، أنْ يستقرَّ في قلبِكَ أنَّه لا خيرَ لكَ في شيءٍ، مُنِعْتَ عنه وأنَّ رحمةَ اللّـهِ بالحِرمان لا تقِلُّ عن رحمته بالعطاء».

لكنها وقعت في نفسه وتركت أثرًا في قلبه، حمد ربه ووضع طعامه بجانبه ليبدأ تجهيز حقيبة السفر.

* * *

أخبار جديدة تنقل، ذهب «أمان الله» في السيارة الخاصة بالعمل مع صديقه المصور، قصف جديد، منازل عديدة هُدمت، مجازر أكثر ارتكبت أمام الأعين الصامتة التي ترى كل شيء على الفضائيات، لكنها ساكنة تمامًا لا تقوى على فعل شيء.

صراخ وعويل، نحيب أطفال وأمهات، رجال صامتة عيونهم توحي بكل ما يشعر به من قهر وخذلان، ينقلون الجثامين مغطاة بملاءات وأغطية ملطخة بآثار الهدم، يخرجونها من المنازل المهدمة ليستروا بها أجساد قتلى الحرب، يهرول هذا وذاك بأجساد ممزقة، وأشلاء متناثرة لا يقوى أحد على مثل هذه الأمور، عيونهم تبث لنا الألم.

يجلس المذيع في الأستوديو يتواصل مع «أمان» قائلًا:

– الآن ينقل لنا «أمان» الوضع الحالي في شمال القطاع، أسمعك يا «أمان» تفضل.

– مرحبًا «أكرم»، هنا الأوضاع متدهورة للغاية، الآن قصف جديد لعدة منازل مأهولة، الشهداء أغلبهم أطفال ونساء، وما زال تحت الركام العديد منهم، الدفاع المدني لم يأتِ بعد، والسكان يقومون بالبحث عن أحد ناجٍ تحت الركام بأدوات بسيطة حتى يأتي رجال الدفاع المدني.

عينا «أمان» الدامعة تقول ما لا يقوله لنا، تخبرنا أنه في مكان غاب فيه الأمان فلا تعني الكلمة شيئًا أمام صمت العالم، يسأله «أكرم» المزيد ويجيب عليه، ينقل الآن مشاهد إنقاذ حياة الناجين وما زالوا تحت الأنقاض يحدثونهم يخبرونهم أنه سيتم إخراجهم، يسأل المتحدث مع الناجي:

– هل هناك أحد معك؟

لا يستطيع وصف المشهد المحيط به، يبكي الطفل قائلًا:

– ماما كانت معي وإخوتي، لكن لا أحد منهم يرد عليَّ، أنا خائف يا عمي.

ينظر إليه «أمان» الطفل وجهه مدمي، مليء بالغبار إثر القصف:

– لا تخاف يا صغير، سنخرجك الآن.

ينهي «أكرم» الحوار مع «أمان الله» ويتركنا لمشاهدة الصورة مباشرة أمام أعيننا، نرى إخراج الطفل مغطى بالأتربة المختلطة بدماء جسده الصغير،

وضعوا عليه غطاء حتى لا يحتك جسده بالحائط أثناء خروجه، أُنقذ الطفل ولم يُجِب أحد آخر من أسفل الركام على المنقذين فذهبوا ليبحثوا في مكان آخر، كان الطفل يبكي أهله في أثناء حمله إلى سيارة الإسعاف، أخذه المسعفون لمداواته ورحل الرجل الذي يحمله ليعيد الكرة من جديد، هنا لا تمر دقيقة دون إنقاذ، الجميع مهدد بالموت ولا يعلم أحد من سيبقى على قيد الحياة.

* * *

دخل منزله الذي يصدح فيه صراخ الرضيع ولا يهدأ كأنه يشعر أن أمه في خطر مُحدق، شبح الحزن خيم على منزله، بعد أن زارته السعادة شهورًا قالوا فيها إنهم لم يروا بؤسًا قط حتى غابت عنهم من جلبت معها السعادة إلى منزلهم مرة أخرى، رن هاتفه فأجاب بسرعة، امرأة على الناحية الأخرى قالت:

- سلام عليكم، سيد «منذر» معي؟

- نعم، معك «منذر»، كيف أخدمك؟

- ابنتك التي تبحث عنها أعلم مكانها.

- أين هي أخبريني من فضلك؟

- لا أستطيع الآن إخبارك بمكانها، لكنني سأساعدها على الهرب وأقابلك في مكان تأخذها منه، عليك الانتظار قليلًا، لا تقلق أنا لا أدع أحدًا يؤذيها.

- أرجوك أخبريني اسمك أو أي شيء عنك، أين تسكنين سآتي وأخذها بنفسي؟

- لا يمكنك القدوم هنا خطر جدًّا.

- لكن كيف ستخرج إذَنْ؟

- اتصلت لتطمئن فقط، الباقي اتركه على الله، لا تقلق، سأغلق الآن سامحني.

أغلقت وقد تركته في خوف وقلق زائد عما قبل مكالمتها، يفكر من هي؟ كيف تستطيع إعادتها؟ لكنه استسلم، لم يكن أمامه خيار آخر، عليه الانتظار حتى تتصل من جديد، خرجت «غالية» تسأله عما يحدث، قص عليها ما حدث معه منذ بداية اليوم، وماذا فعل ليعلم مكان «صفية»، ثم دخل يطمئن على «ريان» الذي كان مصدر بهجتهم قبل اختطاف أمه، قَبل رأسه وجلس إلى جواره ينظر إليه ويملأ عينيه منه، أما زوجته انصرفت لأداء صلاة العشاء لأنها تأخرت عنها أثناء بكاءه.

* * *

يلقي نظرات على أمه النائمة في غرفة الرعاية يريد أن يخبرها بأسفه على ما تسبب لها فيه من متاعب، تمنى لو تعامله على أنه كبير، لم يعد صغير، العالم يتغير من حولنا، لم يعد الصغير صغيرًا بعد كل هذا الانفتاح والفتن التي باتت كقطع الليل المظلم، كلما أغلقنا أعيننا عن واحدة ظهرت أخرى، جاءه «رقيم» يخبره بموعد الذهاب مع فريق الإغاثة، لقد تقرر أن يكون بعد غد، تفاجأ «عمر»، تمنى لو أنها تستيقظ قبل أن يرحل من أمامها خشية ألا يعود، فما يخفيه في نفسه لا يعلمه رفيقه الذي يساعده على الذهاب معه، هز «عمر» رأسه قائلًا:

– ماذا آخذ معي غير القهوة يا «رقيم»؟

ابتسم له وهو يقول:

– خذ ما شئت إنهم بحاجة إلى كل شيء حتى الماء، سآخذ بعض الحلوى معي لمن أقابله من الأطفال، خذ معك أيضًا.

– حسنًا، سآخذ المزيد من الحلوى مع القهوة، وبعض الأدوية.

– سنقوم بإدخال الدواء مع طاقم الإغاثة بصفة رسمية، إنما بقية الأشياء لن يسمحوا بدخولها، لذا سنأخذ كل منا شيء.

– هل تظن أنها ستنتهي يا «رقيم»؟

– إن شاء الله كما بدأت تنتهي، لكن متى، العلم عند الله.

أعاد بصره على والدته كأنه يلقي عليها نظرات وداع، لا يريد أن يحزن قلبها ويتسبب في ألمها، لكنه لا يريد أن يبقى هكذا ساكنًا يردد شعارات زائفة لا تفيد بشيءٍ لا للوطن المحتل ولا لأهله، زفر بضيق كأنه يزيح عن صدره همًّا كبيرًا، ثُقل يعيق تنفسه ويشغل باله فلا ينام ليلًا قليلًا، دمعاتهم وصرخاتهم تلاحقه في كل مكان كأنهم يطلبون منه المجيء.

* * *

جالسة تتابع الأخبار لتفخر بجيشها الذي لا يقهر، تتصفح صفحات العرب والمسلمين كافة لتشمت وتشفي صدرها، قرأت منشور عن مجزرة جديدة ارتكبت فابتسمت وهي تقرأ وتبحث كم شخص مات، تتشفى

في كل منشور وتضع عليه إعجاب بالضحك لتثير غضب الذين يساندون القضية الحقيقية.

اليوم 10 أغسطس

اليوم 308 من الحرب، مجزرة الفجر بحي الدرج غزة.

مئة شهيد ساجد وأمة كاملة خانعة خاضعة للذل والمهانة، الآن فقط وبعد حرب التطهير العرقي الجارية أصبح الكل يعلم من باع وطنه وهويته ومن حافظ عليها، ليسوا سواءً من ينزح من مكان إلى آخر وسط الحطام والقصف، ومن جالس في منزله بجوار المكيف ليحكم الثاني على الأول من يبحث عن الحياة وسط الموت، الحرب، الركام، والقصف ولا يبالي بما يُقال عنهم بل كل كلامهم أن هذه عقيدتنا ولن نترك أرضنا.

لا يمكن أن يألف أحد هذا المشهد المتكرر إلا من قلبه كالحجارة أو أشد قسوة، كيف لأحد أن يرى هذه الأشلاء يوميًّا في بث مباشر وقلبه لا يتحرك؟ هل يمكنه النوم وإخوانه هكذا غير آمنين ومن ينام قد لا يستيقظ من جديد؟!

في أثناء اندماجها وابتساماتها سمعت صرخة هستيرية يصحبها بكاء بهلع، خائف من شيءٍ ما يلاحقه في أحلامه حتى استحال نومه، استيقظ «چون» كعادته يصرخ ويبكي، تغير بعد عودته من الحرب، ظل أربعين يومًا يقتل، كان يخبر أصحابه أنه يعتبرهم أحجار شطرنج وهو يقوم باصطيادهم، يقصف ويهدي ما قصفه لمن يحب، كان يصور المقاطع وينشرها على وسائل

التواصل الاجتماعي وسط احتفالات وضحكات، مرضى نفسيين يعذبون الناس ويقتلونهم بل ويفرحون بما يخلفونه من دمار وأشلاء متناثرة هنا وهناك، الآن لا ينام بعد أن بترت ساقيه يراهم في أحلامه يسألونه «فيم قتلتنا؟».

قبل أسبوع استيقظ من نومه، قتل ابنته الرضيعة فأبلغت زوجته السلطات وقاموا بوضعه في مصحة نفسية مع بقية الجنود الذين يتلقوا العلاج النفسي بعد عودتهم من الحرب.

جاءته ممرضة أعطته حقنة مهدئه ليعود إلى النوم، لكنه لا يريد أن ينام ففي داخل عقله يرى لعنة أبناء غزة وشوارعها، يرى أشجارها تشير إليه وتخبر المقاومين عنه لينتقموا منه بجنس ما عمل في إخوانهم، حدثها قائلًا:

– هل يمكنك أن تخبري الطبيب أنني أريده اليوم؟ أرجوك أنا لا أنام، عقلي لا ينام، قد تري أنني نائم لكنني أعاني بداخل عقلي.

– حسنًا، لا بأس سأخبره ولا تخاف النوم اطمئن، أنت من أبطالنا الذين دافعوا عن وطننا.

– عن أي وطن تتحدثين هذا ليس وطننا؟!

– كيف تقول هذا عن دولتك إنها وعد الله لنا؟!

– شعارات مزيفة تحفظونها وتخبرونا بها، ليس لدينا أي وطن، نحن جئنا من بلدان شتى إلى هنا عنوة، الآن نقتلهم كما قتلهم أجدادنا من قبل، أنا لا أعتبر هذا وطن لأنني جئت من أجل المال، لم يخبروننني من أواجه، هؤلاء الأشخاص لا يهابون الموت عكسنا نحن.

– اصمت لا تقل هذا، أنت متعب فقط.

– متعب! أنا تدمرت من أجل وطن مزيف، لا أنام ولا أستطيع المشي في مقابل حفنة من المال، ليتني ما جئت.

غادرت غرفته وهي تتمتم بهمسات غير مفهومة، بدت حزينة على ما يقول، يصعب عليها الجنود المصابون والأسرى المخطوفين لدى المخربين، لكن ماذا عن أربعين ألف شهيد أجسادهم غير كاملة ومعظمهم دفن في مقابر جماعية، أشلاء ممزقة تدفن لا يعلمون صاحبها، ولم يستطيعوا إيجاد بقية جسده فدفن جزء منه، أمثل هؤلاء لا يستحق الرحمة أو الشفقة؟!

* * *

يسير في طريق منزله لا يدرى ماذا حدث، كيف هذا الطالب ورفيقته غير موجودين في الجامعة؟ هل يمزح هذا الموظف أم أنه كان يتخيل ما حدث؟ يجب أن يسأل الطلاب عنهما غدًا ليطمئن على عقله أولًا.

دخل إلى المنزل، ألقى السلام، سألته أمه عن زوجته، أخبرها أنه مر عليها قبل مجيئه وهي بخير لكنها لم تستيقظ بعد، يزداد حزنها عليها يومًا بعد يوم، تدعو لها أن تعود إلى منزلها على خير، سألته هل يريد تناول الطعام فأشار أنه لا يريد ثم دخل غرفته، بدأ يحضر أوراقه ويضع بعض الأشياء في حقيبته تمهيدًا لرحلته القادمة، عليه التركيز فيما سيفعل هناك، لا يعلم ماذا سيقابلون في هذه البوابة التي تحدث عنها «منصور».

عاد بذاكرته إلى الوراء ليرى الشيخ «أحمد ياسين» كأنه واقف أمام عينيه سليمًا معافى، هذه الظلال يراها منذ أن بدأ بقراءة سيرته ومسيرته، لماذا يراها لا يعلم لكنه يخيل إليه أنه يتبادل معه الحديث، قال:

– هل سأراك حينما أدخل إلى هناك؟

– لا أعلم أنا في عقلك فقط، إن تذكرتني في بلدي لا بد أن تراني، في كل زاوية منها لي ذكرى باقية، حيث الأرض التي لا تنسى أبنائها، وأشجار شاهدة على كل ما حدث فيها.

تنهد الشيخ «ياسين» وهو يقول:

– لا أذكر عدد المرات التي قاومت فيها واختبأت مع رفاقي وسط أشجار الزيتون والسنديان، آه لو كنت معنا، لا بد أنك كنت ستسعد كثيرًا.

– ليتني كنت معكم، لكنني لم أكن يومًا من أهل هذه البلد التي لا تنسى أبناءها، لكن هناك من أحزن عليهم من تفكيرهم وهم منها يا سيدي.

– مسكين من لم يكن من أهلها صدقني، الأولاد بعضهم لا يعرف شيئًا، ألا تعلم أننا واليهود في صراع على هذا الجيل، فإما أن يأخذه اليهود منا، أو ننقذه من أيدي اليهود.

– نعم، صدقت يا سيدي.

– أتعلم يا بني، كنت أتمنى أن أرى دهشة العرب حينما يُطلب منهم رُفات اليهود الذين وُضعوا بينهم وهذا ليس ببعيد عمَّا يحدث الآن، لكنني على يقين بأنهم كُثر وتسببوا في كل ما يحدث لأمة المسلمين، فكل المصائب التي تصيبهم خلفها اليهود.

ظل يفكر كيف سيتمكن من إنقاذ ما دُمر على مدار سنوات عدة، البعض مغيب فاقد الهوية، والبعض الآخر لا يعرف إلا أن هؤلاء باعوا أرضهم مقابل المال، وهناك من هو على يقين أن كل ما قيل محض هراء وافتراء على أصحاب أرض لم يتركوها وصبغت بدماء أبنائهم، أشخاص ما زالوا يحملون مفتاح ديارهم رغم تهجيرهم منها عنوة.

فتح مفكرة كان يجمع بها معلومات عن تاريخ المقاومة وبدأ يقرأ منها بعد أن اختفى شبح الشيخ ياسين من أمامه، كان يقرأ عن القائد عز الدين القسام كيف بدأ وكيف كان يقاوم المحتل.

وصل أمير المجاهدين عز الدين القسام إلى فلسطين عام 1920م عمل في التدريس في مدارس حيفا وكان يبث روح الجهاد في نفوس الطلاب، استمر في عمله حتى عام 1925م، ثم عمل خطيبًا في مسجد الاستقلال بعد انتهاء بنائه مباشرة، كان يحث الناس على الجهاد ويزرعه في نفوسهم ويخبرهم أنه لا طاعة ولا ولاء إلا لحاكم مسلم، حتى أعلن في مسجد الاستقلال أن الإنجليز هم رأس البلاء والداء، ويجب توجيه الإمكانات كلها لحربهم وطردهم من فلسطين، قبل أن يتمكنوا من تحقيق وعدهم لليهود (وعد بلفور)، حيث جعلوه من أهداف الانتداب البريطاني في فلسطين، بل هو هدفهم الأول، وحذر عز الدين القسام المصلين في إحدى خطب الجمعة سنة 1927م من التساهل مع الهجرة اليهودية التي تحتل البلاد.

شرد بخياله كما اعتاد ليتخيل رؤية المشاهد فأغمض عينيه ليرى بوضوح أكثر ما قرأ وما رأى في الكتب التي كتب منها هذه المفكرة.

* * *

اليوم 21 أغسطس 2024

«مجزرة مدرسة صلاح الدين التابعة للأونروا».

هرج ومرج، أشلاء متناثرة هنا وهناك، تحت الأنقاض أشخاص يلقون حتفهم أو هم بالفعل أموات، لكن من يبحث يحاول أن يجد أحدهم على قيد الحياة، لا يبالي إن ظل يبحث أيامًا أو يزيل بيديه العاريتين آثار الدمار والأنقاض المتراكمة، ينادي من يعرفه ومن لا يعرفه لعَلَّ أحدهم يجيب، لكن بلا جدوى.

هنا الصاروخ ينزل يعلم ما يفعل، يقضي على كل ما يقع عليه، رأينا أشخاص تبخروا تمامًا، ينقل الصحافيين الأخبار وهم دامعي الأعين، ملامحهم تنقل معاناتهم عند رؤية المزيد من الأشلاء كل يوم.

هل تعلم ماذا يعني جثث متبخرة؟ هل تستوعب عقولنا هذا الخبر؟

«أمان» ينقل الخبر على التلفاز يحدثه المحاور له قائلًا:

– أمان، أخبرنا ما الوضع عندك، نرى في الصور استهداف مباشر للمدرسة التي تؤوي نازحين.

– نعم هناك استهداف مباشر، هناك جرحي وقتلى كعادة كل يوم، نحن هنا لا نتوقف عن إحصاء أعداد الشهداء، كل شخص هنا فقد من عائلته الكثير، وإن لم يكن قد فقدها كاملة.

– إذَنْ صف لنا ما حدث أمامك يا «أمان» بالتحديد.

يبكي «أمان» أمام الشاشة وهو يخبره أنه فقد أشخاص من عائلته اليوم، حيث ألقي صاروخ مباشر استهدف خيمتهم التي يبقون بها، قال:

– أمي وأختي الطبيبة وثلاثة أطفال، هذا غير الخيام المجاورة، لم أستطع الذهاب إلى هناك بعد لكن أخبروني أنهم لم يكونوا كاملين، كانوا جميعًا أشلاء قطعًا صغيرة يا «نبيل»، قد تم تجميع ما استطاعوا جمعه في كيسين، خمس أشخاص وضعوا في كيسين فقط يا «نبيل».

فاضت عيناه بسيل من الدمع، «أمان» الذي فقد أمانه في هذه الحرب، كذا محاوره بكى فابتعدت الكاميرات عن عيونهما كي لا يراهم المشاهدين.

أغلق بعد أن قام محاوره بتعزيته على الهواء مباشرة، بينما بقي المحاور مع العديد من المشاهد التي يبثها المصور المرافق لـ «أمان» ويبقى مع ضيفه يحلل الأوضاع بعد مشاهدة المزيد من الفيديوهات المباشرة يوميًّا.

* * *

يسير بعد أن تعقم كاملًا لرؤية قرة عينه قبل الرحيل ويقبل جبينها ويديها، دخل غرفة الرعاية ينظر إليها وهي ممددة هكذا دون حركة سوى حركات الأجهزة التي حولها، يقول الأطباء أنها بخير لكنها في غيبوبة لا تنظر إلى أحد

ولا تتكلم، كأنها في عالم غيبي تعيش بعقلها فقط لكن كل خلاياها نائمة، تنهد وهو يضع يده على يدها يتلمسها، يقبلها، مسح على رأسها وقَبل جبينها قائلًا:

– يقولون إن المريض في أثناء الغيبوبة عقله يسمعنا أو على الأقل جزء منه، أرجوك يا أمي إن كنت تسمعين صوتي الآن سامحيني على إحزانك، سأغادر قريبًا ويؤلمني أن أتركك وأنتِ بهذه الحالة، سأفعل أي شيء لكن فقط حركي إصبع أو افتحي عينيك لأرى بريقهما مرة واحدة قبل المغادرة.

سقطت دمعاته الحارة على وجهها وهو يتحدث، مسحها بكفه بحنو تذكر كيف كانت تمسح دمعاته إذا بكى، كم حضن أخذه منها كلما حَزن، كفكف دمعه وحده هذه المرة وهو يدعو الله أن يشفيها ويطيل عمرها لأجله هو كي لا يكون عاق أمام ربه، لا يريد أن يكون سبب في إيلامها، انتهت دقائقه المعدودة في رؤيتها هكذا، قَبل يدها قبل خروجه، عاد إلى الوراء ناظريه لا يحيدا عنها، قد تكون آخر مرة يراها الآن فهو ذاهب إلى مكان قد لا يعود منه، ما إن خرج حتى قابله «رقيم» يخبره أن موعدهم الصبح بعد صلاة الفجر يجتمعان مع بقية فريق الإغاثة للسفر إلى غزة، كأنما قُبض قلب «عمر» فجأة دون سبب واضح، هذه الرحلة ينتظرها لكنه كان يظن أنه لن يرحل إلا بعد استيقاظ أمه، يبدو أن الوقت لم يسعفه، فكر في ترك رسالة لها ومقطع مرئي تراه حينما تستيقظ وتتحسن بأمر الله، فعل ما رآه مناسبًا ثم استأذن للذهاب إلى منزله تاركًا «رقيم» في المشفى.

خرج من المشفى بعد أن بدل ملابسه وذهب إلى السوق مباشرة، الوقت ما زال مبكرًا، الثامنة صباحًا، لم تفتح جميع المحال التجارية، اشترى بعض الأشياء ثم توجه إلى مكان يجلس به حتى يتسنى له شراء ما يريد حينما تفتح المتاجر الباقية، حديقة غنَّاء بأشجار بديعة وزهور توليب متنوعة الألوان تزين حدودها، جلس على مقعد خشبي وسرح في جمال الطبيعة الخلابة أمامه ثم نظر إلى السماء فوجد القمر ما زال هناك لم يختفِ بعد، أعجبه وأخرج هاتفه والتقط بعض الصور له، ثم بدأ يقرأ ويتابع الأخبار على المواقع المختلفة، قال مبتسمًا بامتنان:

– إن موعدنا الصبح، أليس الصبح بقريب، اللهم يسر لي سفري والبقاء معهم قدر المستطاع.

* * *

في الصباح تهيأت «عائشة» وكذا جدتها للذهاب إلى المشفى لرؤية ابنتها التي لم تنجبها، أخبرت «عائش» أباها بخروجهما، ونزلتا إلى سيارة الأجرة التي طلبتها لتوصلهما إلى المشفى مباشرة، جالستان في السيارة ينظرون إلى ساعاتهما كل دقيقة تشعران أن الوقت قد طال، هكذا هو شعور الانتظار، حين تريد الاطمئنان على عزيز عليك ترى أن الوقت يمر ببطء شديد حتى تجد نفسك أمامه فيطمئن قلبك وتسعد نفسك لرؤيته، وإن كان لن يُحدثك أو ينظر إليك، لكنه على قيد الحياة ويمكنك أن تأتيه متى شئت.

وصلت السيارة إلى المشفى أخيرًا، أسرعتا في النزول والدخول إليها حتى وصلتا إلى غرفة الرعاية، كان «رقيم» جالسًا يتحدث إلى أحد الأطباء عن حالتها، يطلب منه رعايتها جيدًا حتى يعود ويوصيه عليها، رأى «عائشة» وجدتها قادمتان فذهب يستقبلهما، قَبل يد الجدة واطمئن على صحتها، وألقى السلام على «عائشة»، كذلك طلبتا منه إخبارهما عن صحة والدتها فقال لهما:

– إنها ما زالت غائبة عن الوعي لكن مؤشراتها حتى الآن جيدة، ننتظر نتيجة الأشعة على المخ لنقوم بالتشخيص السليم.

ترقرقت عينا «عائشة» بالدمع فاحتضنتها جدتها تطمئنها وهي تقول:

– ستكون بخير لا تقلقي يا ابنتي.

سألت عائشة:

– ماذا سيحدث إن لم تستيقظ؟ ماذا سأفعل يا جدتي؟

– لا تقولي هذا، الله لطيف، هو الشافي ونحن نأخذ بالأسباب فقط.

– ونعم بالله يا جدتي.

خرجت الممرضة من غرفة الرعاية تخبر «رقيم» أن السيدة فتحت عينيها، لم يصدق، لقد انتظر يومًا كاملًا ليسمع هذا الخبر، دخل مسرعًا يفحصها مع الطبيب الآخر، يطمئن أنها بخير، ما إن رأته بعينيها حتى همست قائلة:

– أريد «عمر».

هز رأسه مبتسمًا يخبرها أنه ذاهب ليتصل به، لا بد أنه لم يعد إلى المنزل بعد، لقد خرج منذ قليل كان هنا يجلس بجوارك، هزت رأسها وهي تقول:

- أعلم، أريده الآن.

خرج يتصل بصديقه ليطمئن على أمه يخبره أن الله استجاب دعاه واستفاقت قبل سفره، وأخبر «عائشة» والجدة أن تنتظران هنا حتى يسمح الطبيب بدخولهما، طلب منهما الاتصال بـ «كيرال»، أخبر «عمر» أن يُسرع ولا يتأخر ثم أغلق الهاتف، أما «عمر» سجد شكرًا لله ﷻ وقام ليعود لرؤيتها وطلب السماح منها.

* * *

جالس يمعن النظر في كتبه عن التاريخ كما اعتاد أن يقرأ ليشغل نفسه عن همومه فهو لا يحب أن يكون فارغًا يخشى على نفسه من شر نفسه، فيقرأ في شغفه المعتاد، أوقفته كلمة عن «عز الدين القسام» قالها «أحمد الشقيري».

«كنت على معرفة وطيدة بالشيخ عز الدين القسام، عرفته تقيًّا ورعًا، خطيبًا دينيًّا صالحًا، واجتمعت به في مؤتمرات جمعيات الشبان المسلمين في حيفا وغيرها، ولم يكن يدور في خلدي أو في خلد غيري، حتى من أصدقائه المقربين، أن هذا الشيخَ المعممَ إمامَ الجامع كان يهيئ نفسه لقيادة ثورة مسلحة ضد السلطات البريطانية مباشرة».

قطع تركيزه رنين الهاتف فأجاب لأنها ابنته، أخبرته أن أمها استيقظت وعليه أن يأتي لرؤيتها، هَبَّ من مقعده واقفًا يخبرها أنه سيبدل ملابسه ويأتي

بسرعة، أغلقت الهاتف فسجد شكرًا وحمد الله، ثم بدأ يغير ملابسه، خرج مسرعًا بسيارته يدعو الله أن تكون بخير، في أثناء الطريق لمح هذا الطالب ينظر إليه ويبتسم فقال في نفسه:

– هذا «رامون» ورفيقته من الجامعة كيف هذا؟!

عاد إلى الخلف ليتأكد مما رأى فلم يجد شيئًا، ازدرد ريقه وسم الله وأكمل طريقه يفكر فيما يحدث له، فجأة ظهر أمامه كلمة «أنتظرك في الجبل المقدس»، اختفت الكلمة كما ظهرت، لم يفهم المقصد ولا المعنى، في أثناء تفكيره اصطدم بعمود الكهرباء الموازي للمشفى التي بها زوجته، صدمت رأسه وفقد وعيه، أسرع المسعفين لإخراجه من السيارة وأخذه إلى غرفة الطوارئ، في أثناء دخولهم إلى المشفى سمعوا انفجارًا كبيرًا، لقد انفجرت سيارته إثر الحادث، تفاجأ الجميع بما حدث واتصلوا بالمطافئ كي يساعدوهم بسرعة في إخماد الحريق.

الفصل الرابع

عين چهانيم

من هنا تبدأ الانتفاضة من جديد، أرض تحكي سرديتها ورمالها تحمل الذكريات والتاريخ لمن يريد أن يسمعه، إن وطأت قدميك أرضها سترشدك بنفسها إلى أشجار لا تنسى تاريخ ولا أرض تخون أصحابها، وإن عمرها غيرهم سيأتي اليوم التي تلفظهم فيه وتُخبر عنهم إن اختبؤوا خلفها، الشجر والحجر هنا يحمل تاريخ لم يسجله أحد سواه فاستمعوا لحديثه وانصتوا لعلكم تعقلون حقيقة الأرض من قلب جماداتها التي لها روح وجذور أقوى من أي شيءٍ مر على تاريخ البلدان، هنا كل شيء يهتف بأن الأقصى عقيدة وإن لم تسمعه الآذان أو تراه العيون، لكننا ندرك أن الله لن يخذل قومًا حاولوا حماية قُدسه، أنا جنين الأرض الأبية على العدوان.

يقرأ «أمان» تقاريره الصحفية التي يجمعها دون ترتيب، وفي صدره ألم كبير على ما يجري، أربعين ألف شهيد وما زال العدد يزداد، كل هذا في أقل من عام.

اليوم الحادي عشر من مايو عام 2022 م. «جنين»

مقتل شيرين أبو عاقلة

ذهبت تغطي خبر اقتحام مخيم جنين فاخترقت طلقة من قناص صهيوني رأسها باستهداف مباشر، كانت ترتدي سترتها الصحافية والخوذة لكنه أصابها رغم علمه أنها صحافية وأنها ترتدي السترة الواقية التي كتبت عليها كلمة صحافة بالإنجليزية، بعد انتشار خبر وفاتها بدأت الاحتفالات في المستوطنات المختلفة.

احتفالات وصخب بصورة غير عادية في تل أبيب، مستوطنون يتراقصون يوزعون الحلوى والخمور، ماذا حدث لكي يفعلون هذا؟

ما الأمر الذي أسعدهم إلى هذا الحد؟ توجه إلى أحد المستوطنين بسؤاله: ماذا حدث؟

أجاب الشاب والبسمة على وجهه حتى كادت عيناه تدمع من فرحته، قائلًا بصوت جهوري:

– لقد ماتت شيرين، شيرين أبو عاقلة ماتت.

صُدم وتوجم وجهه لوهلة حتى انتبه أنه سيُلاحظ حزنه إن بقي واجمًا هكذا، هل هي غالية على هذه البلاد؟

قال في نفسه: «دمنا رخيص فداء للأقصى» صمتت نفسه الأبية التي أرادت أن تنتقم ممن يفرحون في موتها، صبر قلبه بأن حرية الوطن غالية، وإن كان ثمنها أرواحنا فلا بأس ندفعها بنفوس راضية.

أعطاه الشاب حلوى الفرح الذي يوزعونها وهو يقول:

– أنت لا تصدق أعلم، كنت مثلك حتى تأكدت من الخبر على قنوات التلفاز، الجميع ينقل الخبر، هذا نصر عظيم، انهمك الجميع في تراقصهم ونسوا بأن هناك من يراقب أوضاعهم كي يقتنص فرصته المناسبة ليحول فرحهم إلى حزن لا يخرجون منه أبدًا، وقد بدأ كل شيءٍ بعدها ليكون طغيانهم وبالًا عليهم.

يوم 24 مايو 2022م «نابلس»

تمكن مقاومون فلسطينيون في الضفة الغربيَّة من نصبِ كمينٍ لقوات الاحتلال في خلالَ اقتحامهم قبر يوسف، ما تسبَّب في وقوعِ عددٍ من الإصابات في صفوفِ الجيش الإسرائيلي.

أعلنت كتيبة نابلس بعد عدَّة أيام مسؤوليتها عن كمين شرق نابلس الذي أوقع إصابات في صفوف جنود الاحتلال، مؤكِّدةً أنَّ العملية جاءت ردًّا على اغتيالِ القيادي في الكتيبة محمد مرعي.

توقف «أمان» عن القراءة وكتب تغريدة يقول «اسمي أمان الله، أكتب هويتي على يدي بقلم لا يُمحى مثل أي شخص هنا حتى إذا ما بقي مني شيءٌ تكرمون مثواي وتتعرفون على ما بقي مني، نحن هنا أشخاص لكل منا قصة وأحلام، كلهم ماتوا إلا واحدًا وهو أن ندفن كاملين وليس جزء منا أو قطعة، خلق كل منا إنسان من دم ولحم وروح تحلق مثل الطيور في أسرابها، لكن سُلبت منا حريتنا وحرمنا من كل شيء، والآن نحارب عليها داخل

السجن الكبير الذي نعيش فيه مع عدو يستبيح دماءنا ولا أحد سيردعه عنا إلا الله ﷻ».

* * *

يوم 31 يوليو 2024 م «اغتيال هنية»

كان في زيارة لدولة ايران، حيث تم اختراق صاروخ موجه إلى مقر إقامته في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، قُتل إسماعيل هنية قائد المقاومة ومرافقه الشخصي، البعض كان يشكك في نواياه فاختبره الله بوفاة أبنائه وأحفاده ولم يجزع حتى قُبض هو الآخر، وكانت الكلمة الثابتة لدى أهل الرباط يتردد صداها في كل مكان «فدا الأقصى».

أغلق «أمان» هاتفه ليعود إلى عمله من جديد، سمع صوت الناس فجأة تهرول وتصرخ يقولون:

- إسماعيل هذا إسماعيل والله هو يا إخوتي.

- إسماعيل الغول يا شباب ورامي معه، أسرعوا.

جرى الجميع لعلهم ينقذونهم لكن ما حدث أنهم وجدوا الاثنين قد توفيا باستهداف مباشر، وقف «أمان الله» يبكي وهو يتحدث مع المذيع على القناة التلفزيونية:

- هذا صديقنا وأخونا، كان ينقل مثلنا الأخبار من هنا، لكنهم يريدون قتل الحقيقة وطمسها، اجعلوا عيونكم شاهدة على ما يحدث لنا وللناس هنا.

يهدئه «أكرم»:

فضلًا أمان تماسك قليلًا.

– لا أعلم كيف، إخوتنا دون رؤوس استهدفهم الصاروخ مباشرة، ماتت القلوب، العالم يرى ما يحدث لكنه يدير وجهه.

طلب منه «أكرم» رسم المشهد ليعلم الجميع حقيقة الأمر فقال:

– كان ينقل الخبر من مخيم الشاطئ، لم يكن يعلم أنه آخر خبر سيظهره على الشاشات، كان ثابتًا يخبرنا عن حياة هنية منذ نشأته في المخيم، نظرات عينيه كانت كافية لندرك حجم الخزي والوجع الذي يشعر به ومن معه جميعًا.

في أثناء التصوير طلب منه جنود الاحتلال إخلاء المكان لأنه ليس آمن وغير مسموح التواجد فيه، استجاب للأمر ومن معه فورًا وكذلك سكان المخيم بدؤوا بالرحيل من أمام منزل هنية.

صاروخ وُجه إلى سيارتهم؛ فتفجرت ومات من فيها، كان إسماعيل بلا رأس، ورامي معه، الآن ينقل المشهد أشخاص آخرين غير إسماعيل، كان هنا واقفًا أمامنا، جاء بغتة واختفى فجأة، نشاهد تقاريره منذ أكثر من تسعة أشهر لكنه الآن رحل إلى مكان أفضل، من عرف إسماعيل قَدر حجم المعاناة عبر وجهه فقط، كانت تعابيره تخبرنا بكل شيءٍ.

كل من يعيش هنا ينتظر دوره في الموت، كلنا جنازات مؤجلة لا نعلم من منا سيذهب أولًا، لكن الناجي الوحيد هو الشهيد، يدون «أمان الله» كل ما يتذكره من الأحداث دون ترتيب لاعتقاده أن هذا التاريخ يجب أن يعرفه

العالم أجمع، لا بد أن يعلم العالم أنهم لم يتركوا أرضهم بل تشربت وتصبغت بدمائهم، فسلامًا على أهل ضحوا بحياتهم من أجل أقصاهم ولم يخشوا في الله لومة لائم.

* * *

نفوس ضائعة لا تدري ما تفعل كي تحيا من جديد وتقوم بدورها الطبيعي في الحياة، فتحت عينيها المتورمة وهي ما زالت تتألم إثر الضربات التي تلقتها بعد قتلها للزبون، نهضت تريد أن ترى «صفية» تطمئن عليها، بعد أن جلب ممرضة وعالجت جروحها وأعطتها دواء طلب منها أن ترتاح ولا تخرج من غرفتها كي لا يراها أحد على هذا الحال لكنها أبت، تسير ببطء من تعبها، وصلت إلى الباب فتحته وراقبت الطريق، اطمأنت ثم صعدت إلى الطابق العلوي لترى الفتاة، فتحت الباب بهدوء شديد فلم تجدها، لطمت خدها وهي تصرخ:

- أين ذهبت الفناة؟ أين هي؟!

تبحث كالمجنونة في كل الغرف، تفتح الأبواب وترى كل زبون مع من اختارها، تنظر إلى وجوههم باشمئزاز لكنها لم تجد «صفية»، كاد ينخلع قلبها حين فكرت أن زوجها احتفظ بها لنفسه كما فعل معها، نزلت إلى الأسفل ودخلت إلى غرفته وجدته جالس يأكل ويشرب لا يبالي بأي شيء آخر، ما إن رآها ابتهج وقال:

- يبدو أنك تحسنت.

لم تُجب عليه وأخذت تنظر في أرجاء الغرفة تبحث عنها، حتى فتحت الحمام ولم تجدها كذلك، هجمت عليه تخنقه من عنقه تسأله:

– أين الفتاة؟ ماذا فعلت بها؟

– هل يهمك أمرها إلى هذا الحد؟

– لن أتركك تفعل بها مثل الفتيات الأخريات، ولا حتى أن تجبرها على الزواج منك.

– لن أخبرك ماذا فعلت بها.

– سأقتلك بيدي هاتين إن لم تفعل.

ابتسم ببرود وهو يخبرها أنها لن تستطيع قتله حتى تعرف أين الفتاة، ظل يكيدها بكلام لم يحدث عن الفتاة وماذا فعل بها حتى ضغطت عنقه أكثر، كاد يختنق فتوسل إليها أن تتركه وسيخبرها ماذا فعل بها ففعلت فقال:

– لقد أخذتها إلى غرفتي هنا، لتكون بديلة لك حتى تتحسني، لكنها هربت حين تركتها تبدل ملابسها.

– أي كلب أنت لتفعل هذا؟! ما طينتك أعوذ بالله منك؟!

حمدت الله أنها هربت ولم تُصَب بأذى، لكنها خائفة أن يأخذها أحد الجنود فهم يملؤون المكان هذه الأيام، قد يظنونها فتاة ليل، جذبها من شعرها يهددها ويتوعدها ثم قال لها:

– ما إن يتحسن وجهك ستكونين كبقية النساء هنا للزبائن، لن تتمكني من قتل أحد هذه المرة.

– ماذا ستفعل هل ستعطيني حبوب منومة؟

– لا أبدًا تكلفتها باهظة، سأقيدك ولن تستطيعي فعل شيءٍ لأي شخص.

نادى من بالخارج ليدخل عليه الفتاة الجديدة «صافي»، توجست خيفة مما يقول من هذه الفتاة، تخشى أن تكون هي، هل آذاها، ستقتله إن فعل لها شيئًا، دخلت الفتاة ترتدي فستان أزرق ضيق لا يستر شيء، بدت حزينة ومكسورة كأنها غصبت أن ترتدي هذا وتدخل إليه.

أمعنت النظر بها، تأكدت من شكها أنها هي، لم تهرب كما قال منذ قليل، اقترب من الفتاة وقبل يدها ورأسها، وهي خائفة، مشمئزة من رائحة الخمر التي تفوح منه، وقدمها لها على أنها ستصبح زوجته الجديدة.

اتسعت حدقتا عينيها من الصدمة حتى إن أحدًا لم يتوقع ما قد تفعل، سحبت سكينًا من طبق الفاكهة أمامه على الطاولة ثم أخذت تطعنه به بغضب جم وسط ذهول من «صفية» التي لم تفعل سوى أن جثت على ركبتيها باكية، لا تبكى عليه بل على مشهد القتل المباشر، بعد أن سكن جسده عن الحركة طلبت منها تبديل ملابسها كي تستطيع الهرب معها، خرجتا من الغرفة كأن شيئًا لم يكن، ركبت سيارته وذهبت إلى أقرب هاتف عمومي فاتصلت بـ «منذر» تخبره أن يقابلها الآن ليأخذ «صفية»، بعد مرور نصف ساعة تقابلا، ما إن رآها دمعت عيناه وقال:

– كنت أخشى ألا أجدك، «عالية وريان» ينتظرانك.

شكر المرأة لكنه رأى أنها بحاجة إلى الذهاب إلى المشفى، شكرته هي وأخبرته أنها ستذهب لكن عليها أداء شيء أخير قبل الذهاب إلى هناك، تركتهما وقادت سيارتها لتذهب حيث القتيل التي تركته دون أن يُدفن، عادت لكنها تفاجأت بوجود الإسعاف، تسارعت ضربات قلبها وهي تدخل أيعقل أنه لم يمت؟!

كان الناس يقدمون لها العزاء، أخبروها أنهم وجدوه مقتولًا لكن لم يجدوا سلاح الجريمة، تذكرت أنها أخذته معها في أثناء خروجها لكنها لا تذكر أين وضعته.

دخلت مكتبه لتبحث عن أي أوراق تفيدها، عليها الهروب والخروج من هنا بأي طريقة، في أثناء بحثها وجدت ملف خاص به شهادة مولده وأوراقه الرسمية كلها، شخصت بصرها حينما علمت أنه يهودي، بدأت تبكي بهيستيرية:

- هل تزوجت من يهودي؟! هل عشت مع يهودي؟!

صرخت بوجع شديد، عذبها، تزوجها عنوة، أرادها أن تقوم بالفاحشة، لماذا لم تشك يومًا أنه يهودي؟ كيف خدعها طوال تلك السنوات؟

هوية عربية وهوية يهودية، فاقت صدمتها حدود صمتها طوال سنوات، ألقت الأوراق على الأرض وظلت تُحطم كل ما في الغرفة، وما إن وجدت مسدسًا في أحد الأدراج سحبته فقتلت نفسها، لم يستوعب عقلها الصدمة، فلم تقو على البقاء مع هذا العار الذي تشعر به.

وصلت «صفية» إلى منزل العائلة التي تعيش معها، ما تزال في حالة صدمة وجمود عجيب، دخلت البيت فاحتضنتها «عالية» وأعطاها طفلها تحضنه وتطمئنه أنها هنا.

* * *

يجلس مع أمه في غرفة الرعاية، تطلب منه عدم السفر لأنها خائفة غير مطمئنة لذهابه، مسح على رأسها وقَبل يدها حتى تهدأ وأخبرها أنه سيظل جوارها مهما حدث ولن يتركها إلا بعد أن يطمئن عليها، قالت بخفوت:

- لا تذهب وتتركني لن أتحمل.

- الحِمل ثقيل علي يا أمي، لا أتحمل رؤيتهم هكذا.

- وماذا عني يا بني؟ تتركني وحدي، ربيتك حتى كبرت أمام عيني، لا يمكنني التفريط فيك.

- ولا أنا أفرط بكِ، تعلمين قيمتك عندي لكن ماذا أجيب حين يسألني الله عمَّا فعلت لهم؟

صمتت وأشاحت بوجهها عنه، طلب منها أن تنظر إليه مرة أخيرة كي يكن مطمئنًا أنها راضية، لكنها أبت أن تفعل، ذهب إلى حيث وجهها رأى الدمع ينساب على وجهها مسحه لها وقال:

- عزيز عليَّ أن تبكي، أود أن أساعدهم، لا أنام يا أمي.

- كيف أطمئن عليك؟

– سأتصل بكِ يوميًّا، سنبقى شهرًا واحدًا ونعود بإذن الله، لا تحرمينا دعواتك الطيبة.

احتضنها بقوة كأنه لن يعود إلى هذا الحضن مرة أخرى، ذرف دمعات لم ترها أمه، قَبلها مرة أخرى، وطلب منها السماح له أن يذهب لتحضير حقائبه، فأذنت له بعد أن أخبرها أنه سيأتي مرة أخرى غدًا قبل سفره مباشرة، دخل «رقيم» يخبرهما أن الجدة وأخته تريدان رؤيتها وعليه الخروج ففعل.

يجري المسعفين أمامهما بمريض على سرير متنقل، انتبه له «عمر» فذهب خلفهم يسأل ماذا حدث، أخبروه أنه اصطدم بالعامود المقابل للمشفى وانفجرت سيارته لكنه كان قد خرج قبل حدوث الانفجار، وضع يده على رأسه يقول:

ما الذي يحدث؟ يا رب الطف بنا.

جاءه «رقيم» يهرول ليفهم ما جرى وذهبا معًا لرؤية السيارة، وقفا في ذهول تام عند رؤيتها متفحمة، يتساءلان كيف خرج منها قبل أن تنفجر، قالا بصوت واضح «الحمد لله، لعله خير».

عادا للاطمئنان على صحة «كيرال»، أخبرهما طبيب الطوارئ أنه عالج الجرح وقام بخياطته وما إن يستيقظ يستطيع الوقوف على قدميه والخروج فهو بخير، تنهد عمر مطولًا وهو يردد الحمد لله و «رقيم» يربت على كتفه لطمأنته، جلسا بجواره يتسامران، بعد برهة فتح عينيه فوجدهما على يمينه فنادى على «عمر» يسأله:

- كيف حال أمك يا بني؟

التفت إليه مبتسمًا:

- هي بخير، أخبرني بمَ تشعر؟

- لا شيء سوى صداع وألم في رأسي.

- هل هناك أي ألم في موضع آخر يا أبي؟

- لا، أنا بخير، لا تقلق، ساعدني لأرى أمك.

قال «رقيم» وهو يبتسم:

- عذرًا يا عمي، لكن إن رأتك وأنت بهذا الشكل ستمرض أكثر.

- ظريف أنت، وهل تمزح مع كل المرضى هكذا؟

- أحيانًا أفعل معهم هكذا.

نظر إليهما شزرًا وهما يضحكان معًا، أخبرهما بحزم أن يساعداه على الذهاب لرؤية زوجته، فنفذا الأمر في صمت مطبق خشية أن يشتكي عليهما إدارة المشفى، وصل إليها فدخل يبتسم لها ويطمئن لكنها حين رأته ارتعبت وسألت عما حدث، فأخبرها أنه حادث بسيط وهو بخير، فقالت:

- وجهك متورم ورأسك عليه رباط كبير، أي حادث بسيط فعل هذا بوجهك؟

رد مقتضبًا:

- أخبرتك أنني بخير، الأهم هو أنت الآن.

تفحصت وجهه ونظرت إلى عمر ورقيم اللذان يبتسمان خفية، فعلمت أن هناك شيئًا يخفيه عليها كعادته، وقالت في نفسها «سأعرف من رقيم كل شيءٍ» ونظرت إليهما نظرة تدل على أنها ستجلسهما تستجوبهما عقب رحيله مباشرة.

* * *

يرتب حقائب سفره، يضع الأشياء المهمة، أخذ أوراقه كذلك في حقيبة صغيرة وهيأ كل ما رأى أنه سيفيده هناك، دخلت «أفنان» تسأله سيأكل أم لا فأخبرها أنه لا يريد شيئًا، جلست أمامه تسأله:

– متى ستعتبرني زوجة وتدعني أقوم بالأشياء بدلًا عنك؟

– لن أعتبرك زوجة مطلقًا، عقدت عليكِ كي يرتاح أبي وترتاحين أنت، لا تتوقعي شيء أكثر من هذا.

– لا أتوقع أي شيء، فقط أريد أن أقوم بما كانت تفعله أختي لك.

– لن تكوني مثلها يومًا فهمت، ليس لشيء إلا أنني أحبها هي.

– حسنًا، ماذا أفعل الآن؟

– سأتركك يا «أفنان»، تعلمين أن أخي كان يريد الزواج منك، ربيتك على يدي مثله، دومًا كنت أنتظر اليوم الذي أزفكما فيه معًا، لكنك فعلت ما خيب ظنه فغادر المنزل.

نكست رأسها لما قاله، مهما حاولت أن تنكر لن يصدقها أحد أن ما فعلته حماقة كبيرة، كيف لها أن تُصر على زواج من شخص قام بتربيتها؟ لأنها شعرت أنها يجب أن تربي أبناء أختها، لم يكن ما فعلته حرامًا لكن قلبها ينتمي إلى شخص آخر والكل يعرف هذا، الآن يجب عليها أن تعيد النظر فيما فعلت، لكن هل سيسامحها من تركته وجرت خلف مشاعرها المؤقتة أم لن يفعل؟

أسئلة تدور بعقلها لن تجد لها إجابة إلا عنده هو، وهي تعلم يقينًا أنه لن يغفر لها فعلتها إلا إن تحدث معه أخوه الأكبر وشرح له الوضع كاملًا، قاطع شرودها رنين هاتف المنزل ذهبت لتجيب ما إن رفعت سماعة الهاتف وسمعت صوته تسارعت ضربات قلبها وخافت فتركت السماعة من يدها ونزلت على الفور، التقطها «منصور» فقال:

السلام عليكم.

- وعليكم السلام، هل يمكنني التحدث معها فضلًا؟

- سمعت صوتك يا أخي فتركت الهاتف ونزلت، «فراس» بعد غد سأرحل، أولادي أمانتك أما هي سأذهب إلى المأذون بعد قليل وأنت تعرف ما عليك فعله، لا تتركها.

- لا تقلق يا أخي، في أمانتي حتى تعود.

* * *

جريمة مروعة هزت أركان المدينة، امرأة قتلت نفسها بعد أن وُجد زوجها ميتًا، تبث الأخبار عبر الفضائيات وترى «صفية» والعائلة الخبر، صعقت لما رأت صورة المرأة التي دافعت عنها، تذكرت سلاح الجريمة التي أخفته في ملابسها كي لا تُصاب بأذى، لكن كيف ماتت هي ولم قتلت نفسها؟

ظلت تتابع الخبر بترقب مع الخال «منذر» الذي كان يسترجع لرؤية هذه المرأة في الخبر، بدت إنسانة طيبة لما فعلت ذلك بنفسها، لا أحد منهم يعلم ما حدث.

رن هاتف المنزل، كانت مكالمة من مصر بعد إلقاء السلام قال المتصل:

– معك «يونس»، كنت أسأل عن عنوانكم لآتي وآخذ زوجة أخي وابنه.

– أهلًا يا بني، أخبروني من السفارة أنك ستتصل بي، والحمد لله لقد وجدت «صفية» اليوم وهي بخير لكنها لا تتحدث، سأعرضها على طبيب صباحًا إن شاء الله.

– نشكركم على رعايتكم لها ولطفلها.

– سميناه «ريان» يا بني.

أعطاه العنوان وأخبره أنه سينتظره في المطار وسيحضر معه أوراق «صفية» ليتمكن من استخراج جواز سفر لها، أغلق الهاتف معه والتفت إليها وللطفل بعينين دامعه فقد اعتاد وجودهما معه، ظن أنهما عوضٌ جميل عما فقدوه من أبناء، لكن آن الوقت أن يرحلا بعد أن اعتادا عليهما، نظرت «عالية» إلى الرضيع وقبَّلت يده كعادتها وهي تقول «ريان يا ريان يا حبيب

الدار» بكت وهي تغني له، سيتركها قريبًا وتفتقده من جديد بعد أن أعاد إلى قلبها الحياة التي نسيتها تمامًا، ربتت على كتفها «صفية» ثم تحدثت بخفوت شديد:

– ليتني أستطيع البقاء، لو بيدي لن أرحل وأترككما أبدًا.

* * *

مكالمة مفاجئة لمن لم ينسَ ما حدث بأبوا الهوا، جالسًا يقرأ عن الدولة التي سيذهب إليها ليدرس تحركاته جيدًا هناك ولا يضيع مثلما حدث سابقًا، رن هاتفه على حين غفلة كان رقم خاصًّا أجاب فأخبره المتصل أنه يفتقده وعليه القدوم بسرعة كي ينقذ حياة «صفية» من يده وإلا سيحصل على رُفاتها فقط، أخبره أنه قادم فقال له:

– لا أريد منك الذهاب إلى غور الأردن، عليك القدوم إلى هنا في يافا.

– لكن أنا ملتزم برحلة مع البروفيسور.

– أخبرتك أنني أريدك أنت يا «أوس»، لا تأتيني في مكان غير الذي سأخبرك به وإلا لن ترى هذه المرأة أهلها أبدًا.

انتهت المكالمة فجأة ولم يستطع أن يجيب عليه، لا يعلم ماذا سيفعل، حاول الاتصال بالبروفيسور لكن هاتفه لم يلتقط إشارة، عليه أن يقرر ما سيفعله، هل سيترك المرأة تموت في بلد غير بلدها؟ هل عليه أن ينقذها من هذا الشيء؟ ماذا يريد منه ولم هو تحديدًا؟

وضع رأسه بين كفيه لشدة تدافع الأفكار فيها، لا يعلم ما سيفعل، قرر التحدث إلى أخيه الأكبر ليستشيره في أمره.

خرج من غرفته إلى أخيه الجالس في محرابه يعلم الأطفال ليزرع فيهم القيم منذ الصغر، لطالما علق على باب محرابه التعليم في الصغر كالنقش على الحجر، لذا كل المدينة تجلب له أطفالهم ليعلمهم كما تعلم ويزرع فيهم الأمل، رأى «أوس» قادمًا فاستأذن طلابه وذهب إليه، جلسا معًا على طاولة قريبة فحكى له ما يحدث معه ومع هذه المرأة التي خطفت وهذا الكائن الذي يريد الانتقام منه فقال له:

– يا أخي استعن بالله ولا تعجز لن يضرك أحد إلا أن يشاء الله، افعل ما يمليه عليك قلبك وأنقذ المرأة، وقبل ذلك أرسل إلى البروفيسور مكان وجودك باستمرار كي يلقاك هناك، لا تخف يا «أوس» الله ﷻ يحفظنا من شرور إبليس وأعوانه ما دمنا لا نقطع صلتنا به سبحانه.

– صدقت يا أخي أنت محق، لن أخاف، سأعيد المرأة إلى أهلها إن شاء الله وآتي إليكم.

استأذنه «أوس» ورحل فدعا له أخيه أن يحفظه الله من كل مكروه وسوء ومن شرور الإنس والجن وعاد إلى محرابه من جديد.

دخل «أوس» إلى غرفته، وجد حقيبته مفتوحة ووُضع بها خريطة لمدينة يافا، أمسكها وهو متعجب من وضعها هنا، أغلق حقيبته وحملها ليضعها إلى جانب الباب حتى يحجز تذكرة سفر الغد ليذهب إلى يافا، نظر إلى الخريطة

بإمعان وجد اسمه مكتوب عليها وهناك أشياء تتحرك بداخل الخريطة كأنها نابضة بالحياة، فجأة سحبته الخريطة بداخلها ومعه حقيبته التي في يده، صرخ في أثناء سحبه إلى الداخل لكن لم يسمعه أحد من أهله، كأنه دخل إلى فجوة زمنية تنقله من مكان إلى مكان آخر دون أن يلحظ أحد.

* * *

28 أغسطس 2024

بدأت القوات الإسرائيلية اقتحام مخيم جنين وهذه ليست المرة الأولى، حيث تم اقتحامها في 12 أكتوبر 2023 وفي كل مرة تقدم هذه الأرض دماء شبابها.

بدأت الحرب تنتقل إلى الضفة وأصبح اللعب على المكشوف، يبدو للبعض أنها حرب التحرير الأخيرة ويسميها البعض حرب الوجود، يرون أن الأحداث ستتوالى سريعًا، يقصدون بهذا أنها أحداث النهاية، لكن لا تزال هذه مجرد تكهنات للأزمة الحالية والعلم عند الله ﷻ، ما دام لم تخرج الشمس من المغرب فنحن ما زلنا بخير، وما زال باب التوبة مفتوحًا، كل ما علينا فعله أن نتهيأ للأمر، إذا كانت هي الحرب الأخيرة التي يأتي من بعدها التحرير؛ يجب أن نكون حريصين على أنفسنا مع أي جانب نحن الخير أم الشر، ندعم المقاوم أم المحتل كل هذا علينا حسابه جيدًا لأننا سنُسأل أمام الله ﷻ.

يكتب «أمان الله» لأنه يريد أن يدون التاريخ بيديه حتى إذا نسي أحد تذكر هو وقص الحكاية على من يريد أن يسمع.

اليوم 29 أغسطس 2024

اغتيال أبو شجاع

محمد جابر قائد كتيبة طولكرم حيث اغتالته إسرائيل بعد أن أنهكتها مطاردته الفاشلة طيلة سنتين كاملتين، آخرها إبريل الماضي وتنسب الفضل إلى قوات اليمام.

اليوم 1 سبتمبر 2024

عملية ترقوميا مقتل ثلاثة جنود إسرائيليين على يد شاب فلسطيني.

مهند العسود، ترك السلطة التي شعر بالخزي بمجرد أن عمل بها فترة يسيرة، وأراد أن يكفر عن سيئاته جراء عمله بها بهذه العملية الفريدة من نوعها، وحيدًا دون ترتيب مع أي شخص آخر، فقط معية ربه تشمله ولحسن نيته قضى على ثلاثة منهم وارتقى بعد مواجهة آخرين لمدة ساعتين.

لم يكن كثير الكلام بل ينتظر اللحظة الحاسمة لينقض على فريسته، لم يُرد أن يبقى قطعة من قطع الشطرنج تحركها السلطة كما شاءت، بل حفر اسمه ليبقى خالدًا في أذهاننا.

أتخيل فرحته وهو يقوم بمهمته ويشاهد أمام عينيه فرائسه تتساقط واحده تلو الأخرى، لا بد أنه كان يهلل ويكبر من فرط فرحته.

اسمه مهند وله نصيب من اسمه.

الفصل الخامس

ناقوس الخطر

جوهرة صغيرة تقع بين البحر الأبيض المتوسط وتل أبيب، مدينة عانت من أوقات عصيبة والعديد من الغزاة، من بينهم نابليون بونابرت، التجول في شوارعها القديمة يشبه رحلة إلى الوراء عبر الزمن، حيث تقدم كل زاوية فيها قصة جديدة يمكن اكتشافها، وتخلق الأزقة الضيقة التي تصطف على جانبيها المباني الحجرية وتتزين بالأبنية الصغيرة النابضة بالحياة، أجواء خلابة ومثالية، هل عرفت من أكون؟ أنا يوبا، يافا الجمال هو اسمي، عروس الساحل الشرقي للبحر المتوسط.

داخل الفجوة الزمنية التي دخل بها يرتجف خوفًا، لا يعلم ما حدث، فجأة وجد نفسه في مكان أثري قديم، غرفة صخرية يسمع صوت البحر قريب منه، تلفت حوله لاهثًا كيف وصل إلى هنا، سمع صوت أجراس كنيسة لكنه ما زال يجهل أين هو وكيف جاء.

نظر من نافذة وجد أنه على البحر، أخرج هاتفه من جيبه، فتح جهاز تحديد المواقع، وجد أنه في كنيسة القلعة في يافا.

دب الخوف في قلبه من جديد، ذكر الله في نفسه محاولًا أن يطمئن نفسه قليلًا، فتح الخريطة التي وجدها بغرفته ليرى المكان الذي نزل به من هذه

الفجوة التي سحبته، وجد موقعه يتحرك كلما تحرك، هذه الورقة حية تخبره بموقعه أينما ذهب، علم أين هو؟ فتذكر ما قرأ.

كنيسة القديس بطرس في يافا أو كنيسة القلعة، كنيسة للكاثوليك الفرانسيسكان.

من أهم معالم مدينة يافا المطلة على البحر الأبيض المتوسط، يعود بناؤها إلى الحقبة العثمانية في فلسطين عام 1654م.

دق باب الغرفة كأن هناك من يعلم بوجوده هنا، ازدرد «أوس» ريقه ولم يجب، برغم هذا فُتح الباب ودخل شخص يرتدي زي القساوسة ليرحب به قائلًا:

– أخبرتك أنك ستأتي إلى المكان الذي أريده أنا ليس ما تريده أنت.

ما زال متوجسًا، ضربات قلبه متسارعة، مشدوهًا مما قيل له الآن، ابتلع غصة في حلقه فباغته الآخر بسؤال:

– هل أنت خائف يا أوس؟ ألم تعرفني بعد؟

– لا، لم أعرف من أنت.

– لم أتوقع أن هذا الزي سيخفي هويتي الحقيقية عنك، هل نسيت زين وصفية؟

صمت «أوس» وهو يخبره بهذا، يتساءل كيف جاء إلى هنا؟ كيف انتحل شخصية هذا القس؟ ثم سأله:

كيف فعلت هذا؟ لم جلبتني إلى هنا؟

– أنا أفعل ما أريد وقتما أريد، هل تظنني ضعيفًا مثلك؟ كيف جلبتك إلى هنا؟ ألا تعرف أنني قد أنقلك إلى أي مكان أريد؟!

– أعرف لكن...

– لكن ماذا؟ شككت بقدراتي لأن أخاك كان يحميك مني طوال الفترة الماضية، أليس كذلك؟!

– أخي، كيف يفعل هذا؟

لم يُجب عليه، تركه حائرًا في تساؤلاته، خرج من الغرفة مغلقًا بابها عليه وأخبره أنه هنا تحت سلطته هو ولن يحميه منه أحد.

* * *

آلام لا تنتهي كل يوم ضحايا جدد، هنا حيث يموت الطفل قبل أن يُولد، يشاهد «عمر» الأخبار مع رفيقه، المفترض أن يسافرا اليوم ليس هناك أي أعذار أو تأجيل، أخبرا أبويهما بموعد السفر وكيفية الاطمئنان عليهما، نظر «عمر» إليه:

– أظنني يجب أن أفعل شيء لهم، لا بد أن يكون هناك أكثر من تقديم العلاجات.

هز «رقيم» رأسه يوعده منذ البداية بتقديم الكثير لهم، لكن لا يعلم بما سيجيب «عمر».

سأله «عمر» بحماس:

– متى تأتي السيارة؟ حقائبي معي لكن كنت أريد شراء شيء آخر.

– أمامنا وقت لا تقلق، يمكننا أن نشتري ما نريد، ستأتي السيارة بعد ست ساعات لتأخذنا من أمام المشفى.

اطمأن «عمر» وطلب منه الذهاب معه لشراء ما يريد، فأخبره «رقيم» أنه لم ينهِ تجهيز حقيبته، سيذهب لينهيها ويعود إلى المشفى، خرجا معًا توجه كل منهما إلى مكانه هذا إلى السوق والآخر إلى بيته، كان يفتح باب منزله بريبة خوفًا من أن تراه أمه، دخل يتلفت حوله فلم يجدها يبدو أنها نائمة وكذلك جده، تسحب بهدوء حتى وصل إلى غرفته، أضاء النور فوجدها تنتظره على سريره، ازدرد ريقه وهو يقول:

– ظننت أنكِ نائمة يا أمي.

تنظر إلى أغراضه التي وضعها في حقيبة سفره ودموعها تسبق كلامها، تتلمس ملابسه بيدها وكتابه الذي وضعه بجوار مصحفه، أشارت إليه فدنا منها، جلس على ركبتيه أمامها، أمسكت بكلتا يديها وهي تنظر إليه نظرات توحي بأنه لن يعود مرة أخرى، أرادت أن تحفظ ملامحه جيدًا فقالت:

– وأنا حامل فيك وفي أخيك كان خالك وأبيك يجهزان حقائبهما ليرحلا وجدك كان يبث فيهما الحماسة، أما أنا خائفة ألا أراك، «رقيم» أنا أمك اقسم لي إنك ذاهب مع الإغاثة الإنسانية ولن تفعل شيئًا آخر.

– لماذا تخافين؟ أخبرتك أنني ذاهب كطبيب متطوع.

– انظر إلى عيني وأنت تتحدث لا تهرب بعينيك عني، أعلم ما تنوي فعله، قلبي لا يكذب، أما أنت الآن تكذب.

وقف على قدميه وتحرك ناحية نافذة الغرفة ينظر إلى الطيور التي تحلق في سماء إسطنبول التي وُلد بها ولم ير أبيه، يتمنى لو كانت له أجنحة فيذهب إلى حيث أراد دون مواعيد مسبقة ولا ترتيبات، تربت أمه على كتفه قائلة:

– ستفعل مثل أبيك، أليس كذلك؟!

– نعم يا أمي، وهذا شرف عظيم، لا يسعني البقاء وإخوتي يعانون وحدهم، هم مني وأنا منهم، هكذا ربيتني لمَ تريدين منعي الآن؟

– لا أمنعك أبدًا، لكن قلب الأم طبيعته الخوف والقلق على صغارها، سينتزعونك مني، أرأيت ما يحدث في المخيمات حين يرى الجنود امرأة حامل؟ أنت لا تعلم ما يحدث هناك، لم تره بعينيك، سأخبرك بما حدث قبل أن نخرج من يافا بعد أن أخذوا منزلنا.

«كنت وأختي وزوجات إخوتي بالمنزل مع أمي وجدك، جاءنا تحذير بترك المنزل من أحد المستوطنين ومعه جنود يحتمي بهم، لم ترد أمي الخروج وقالت لن أخرج سأموت هنا وأدفن، أخبرها المستوطن أنه سيلبي لها أمنيتها إن لم تخرج بعد الأيام التي منحها لها، وبعد مرور أربعة أيام جاؤوا ليخرجونا، كانت زوجة أخي حامل في شهرها الخامس وكانت تسير ببطء لأنها متعبه وتمسك طفلها الآخر في يدها، ونحن كل منا يمسك أطفاله ويحمل

حقيبة على ظهره بها أوراقه وأهم مقتنياته الشخصية، أوقفها بسبب بطئها أحد الجنود وذهب إليه المستوطن يسألها لماذا تتباطئين فأشارت أنها حامل وليتها ما أخبرتهم، أوقفونا بالسلاح إلى الخلف وأخذوا الطفل من يدها وهم يخبرونه سنجعلك ترى هل هي حامل في بنت أم ولد، بقروا بطنها، كانت تقاوم حتى شق أحدهم بطنها فوقعت وهي تمسكها، أطلق أحدهم النار على قدميها حتى لا تتحرك وفعل فعلته الشنعاء أمام أعين الطفل الذي كان يصرخ، وذهب يحتضن رأس أمه ويخبرها أن تتحمل حتى يرحلوا، لم يعلم أنها ستموت، انتزعوا جنينها وهي تشعر بكل ألم قد يتخيله إنسان، ظلت صيحاتها تعانق أسماع الموجودين وصرخاتهم لكن لا يجرؤ أحد على الاقتراب خوفًا على بقية الأطفال وزوجات إخوتي، إلا أمي ذهبت وهي تصرخ في وجوههم: «ماذا فعلت لكم؟ حسبي الله ونعم الوكيل» احتضنتها وطفلها وغرقت بدمائها وانهارت باكية فقتلها المستوطن ومعها الطفل وهو يطلب من جدك أن يحفر قبر لزوجته في حديقة المنزل ليلبي له رغبتها، ما دمت لن تعيش هنا ستموت وتدفن هنا».

– أين كان رجال المنزل يا أمي؟

– كان المعظم معتقلًا، إلا أبوك كان من ضمن المقاومة ومات وهو يناضل.

– لم يعلم بما حدث لكم، لم يساعدكم؟

– علم بعدما جاء ليطمئن، وجاء بنا إلى منزل صغير حتى يرتب لنا الخروج من فلسطين، أنت الآن تفعل مثله ستتركني.

– لكن أنتِ هنا مع زوجات إخوتك وخالي وجدي، وأنا مطمئن عليكِ، أما أنا لا يمكنني البقاء مكتوف اليدين هكذا، لا يمكنني أن أقف وأكتب شعارات زائفة لا ترتقي لتصبح حقيقة.

– ابن أبيك أنت يا «رقيم»، تركنا أخوك منذ ثلاث سنوات والآن أنت تحذو حذوه.

– أليس هذا واجبنا يا أمي؟

– هذا الواجب على عاتقك أنت فقط، أين رجال المسلمين؟!

– لا يهمني أين هم، أنا فلسطيني هذه عقيدتي وهويتي يا أمي، لا تخافي نحن الفائزون.

يراقب حديثهما الجد من على كرسيه المتحرك، تذرف عيناه الدمع على الذكريات التي قالتها لابنها، لاحظ «رقيم» وجوده فذهب إليه يحتضنه، قبَّل رأسه ويديه وقال له:

– سأرفع رؤوسكم لا تخاف عليَّ.

– لا أخاف، ربيتك لأجل هذا اليوم يا بني، لقد قدمنا العديد من الشهداء حتى الآن، اذهب، لا تَخَف علينا، سنكون بخير.

عملية معبر الكرامة 8 سبتمبر 2024

– يطل علينا «عابد» من معبر ألنبي بين الأردن والضفة الغربية المحتلة، صف لنا الوضع الحالي عندك تفضل نسمعك.

– مرحبًا «أكرم» الوضع هنا كما ترى، تم تعليق العمل، القوات تحيط بالمكان كله من الاتجاهين الناحية الفلسطينية والأردنية كذلك، القوات الإسرائيلية تنتشر في كل مكان وبدأت التحقيقات في العملية التي حدثت فجأة.

– تبدو سعيدًا يا «عابد» ما السر وراء هذه الابتسامة؟

– الأهالي هنا فرحين بما حدث من هذا الشاب الأردني، أحدهم قام بتوزيع الحلوى فرحًا به، لكن قوات الاحتلال تمنع مظاهر الفرح هنا ويبعدون الناس عن المنطقة كي لا يحتفلون.

– ماذا حدث لمنفذ العملية هل سيتم تسليم جثمانه إلى أهله؟

– تم التحفظ عليه من قوات الاحتلال كالمعتاد، لكن لا بد أن أهله فخورون بما فعل وبمشاركته في عملية طوفان الأقصى.

– ستقدم لنا تقرير عن معبر ألنبي كما ذكرت قبل البث؟

– نعم يا «أكرم» نحن الآن أمام معبر ألنبي سمي بهذا الاسم نسبة إلى الجنرال إدموند ألنبي، وهو جسر يربط الضفة الغربية بالأردن، ويستخدم كمعبر حدودي بين الأردن والضفة، يعود تاريخه إلى الدولة العثمانية حيث كان خشبيًّا يسمى الغورانية، ثم بني مكانه جسر أسمنتي حديث بعد اتفاق

أوسلو، شهد الجسر الخشبي القديم عبرات وآهات المهاجرين في خلال النكسة إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن.

أما عن القائد ألنبي، ضابط وإداري بريطاني، اشتهر بدوره في الحرب العالمية الأولى حيث قاد قوة التجريدة المصرية في الاستيلاء على فلسطين وسوريا.

انتصرت التجريدة بقيادة ألنبي على العثمانيين في معركة مجدو، عندما انسحب العثمانيين من القدس نهائيًا كانت السماء ماطرة، وكان يخيم على المدينة سحب قاتمة من الحزن والسكون بعد أن غابت عنها شمس الخلافة، وقال ألنبي: (الآن انتهت الحروب الصليبية)، وأهدى النصر إلى الأمة البريطانية في عيد الميلاد المجيد.

أما العرب فقد تحالفوا مع الإنجليز ليتحرروا من العثمانيين ويقيموا الدولة العربية الكبرى، ولكنهم خدعوهم وقاموا بتقاسم بلادهم وأعطوا وعد للحركة الصهيونية أن يعطوها فلسطين ليقيموا بها دولة لليهود.

– حسنًا يا عابد، هذا تقرير مختصر، ماذا عن منفذ عملية اليوم؟

– مواطن أردني اسمه ماهر ذياب حسين الجازي، من سكان منطقة الحسينية في محافظة عمان، وكان عبَر الجسر سائقًا لمركبة شحن تحمل بضائع تجارية من الأردن إلى الضفة الغربيَّة المحتلة، وتتابع الجهات المعنية مسألة غلق المعبر بعد هذا الحادث رغم التأكيد أنه فردي.

– شكرًا لك «عابد» على هذا التقرير وأسأل الله أن يطمئن قلوبنا عليكم جميعًا بإنهاء هذه الحرب.

انتهى البث مع «عابد» وأكمل المذيع تقارير بقية المراسلين المتواصلين معه على الفضائية.

* * *

ينظر من خلف النافذة في غرفته، كأنه خلف قضبان حديدية، لا يعلم «أوس» كيف يتخلص من هذا الذي يهدد سلامه النفسي ويهدد بقاؤه على قيد الحياة.

جلس يفكر فيما سيفعل وهو ينظر إلى طراز الغرفة المقيم فيها إقامة جبرية، حدث معه شيء عجيب، في أثناء نظره إلى مكان في الحائط رأى حجر بارز غير بقية الحجارة، قام ليتفحصه فوجده مخبأ به بعض الأوراق القديمة تشبه البرديات الفرعونية، فتحها فرأى كلمات بالعبرانية لم يفهمها، خبأها في حقيبته، وعاد إلى زاوية ليجلس فيها، قام لأداء صلاة المغرب فدعا في سجوده، وعقب الصلاة رأى أشخاص جالسون في زاوية الغرفة يتحدثون عن قسوة الصليبيين في التعامل معهم، ضرب يده بالحائط ليتأكد أنه ليس نائمًا، جلس يستمع إليهم وهم لا يرونه، ثم همس في أذنه هامس:

«إن الحجارة لها ذكريات محفورة بداخلها، تريها لمن تشاء فلا تفزع».

تلفت «أوس» حوله وبدأ يردد الأدعية خوفًا مما يراه ما طمأن قلبه أن من معه في الغرفة من الماضي لا يرونه، أغمض عينيه يفكر فيما سيفعل، أعاد رأسه

إلى الخلف ليستند على الحائط فإذا برأسه تسقط داخل فجوة، التفت سريعًا ينظر داخل الفجوة وجد أخيه جالسًا يدعو الله أن يحفظه ويعيده سالمًا، بدا مهمومًا، حاول أن يدخل الفجوة فما إن وضع قدمه أغلقت بصورة مفاجئة حتى حشرت قدمه بين حجارة الغرفة فصرخ من ألمه.

جاءه الخبيث مبتسمًا يخبره أنه جعل أخيه يراه في مأزق، وربما قد يأتي قريبًا، يستفزه ليتحدث برغم أنه يمنعه من الكلام بطريقة ما، يقاومه «أوس» فلا يستطيع، بعد خروجه ظهر الأشخاص في الزاوية مرة أخرى، كانوا يتحدثون حول مقاومتهم للفرنسيين، وكيف يمكنهم استرداد أرضهم.

* * *

صراخ وعويل في مركز رعاية المصابين الذي تم تخصيصها للعائدين من الموت كما يقولون على أنفسهم، يأخذ هذا مهدئًا وذاك يبكي أكثر من ألمه فيعطى جرعة مسكن قوية، تهدئهم الممرضات وتحاول الترفيه عنهم، تواسيهم أخرى بأنهم أبطال سطرت أسماؤهم في تاريخ هذا البلد، يسأل أحد المصابين والذي لا يظهر منه سوى عينين وفم قائلًا:

– ماذا ستفعل لي البلد؟ هل ستعوضني عما فقدت؟ إخوتي قتلوا هناك أمام عيني ولن يعيدهم أحد.

تخبره بعيون ترقرقت فيها دموعًا تحاول إخفاءها لتبدو قوية:

– سيثأر لهم إخواننا هناك، لا تقلق استريح أنت.

– عليهم ألا يبقوا واحدًا منهم على قيد الحياة، هؤلاء الأعداء إن لم يقتلوا سنموت نحن وتختفي إلى الأبد.

– استرِح كما أخبرتك، لا تتحدث كثيرًا.

– أنا قتلت الكثير منهم، ألقيت الصواريخ في تجمعاتهم، ولما استمرت العملية البرية أيام أصبت ومات إخوتي، اشتعلت دبابتنا وماتوا جميعًا وأنا كما ترين مسخ مشوه ليتني مت معهم.

بكت على حالته تحاول أن تواسيه فزادت همه وحزنه، كفكفت دمعها وخرجت من الغرفة بعد أن أنهت جرعاته اليومية، أمسكت هاتفها ترى الأخبار على قنواتهم، المزيد من القتلى، الجرحى، وبعض الأسرى قتلوا برصاص جيشهم في أثناء محاولة إنقاذهم.

تنقلت بين صفحات الأخبار حتى شاهدت تقرير عن مجزرة جديدة في خانيونس، فرحت واستبشرت وبدأت تستمع في إنصات شديد.

يتحدث المذيع مع مراسل القناة يطلب منه أن يصف المشهد في المواصي: ماذا حدث يا ليث أخبرنا؟

– نعم «أكرم» نحن بصدد حدث جلل ومجزرة جديدة، لم نعد نحصي أعداد المجازر التي يقوم بها الجيش المختل.

مجـزرة المواصي خانيونس

10 سبتمبر 2024

قبيل الفجر نائمون، لا أمان هناك والكل يعلم هذا، عائلات في خيام نُصِبت بعد عناء للحصول على واحدة، أربعون خيمة على الأقل تسقط

عليهم قذيفة ارتجاجية تُحدث فجوة عميقة جدًا في الأرض تصل إلى خمسة عشر مترًا، دُفن أسفلها عائلات بخيامهم، لم يتحرك أحد ولم يثأر أحد، أذكر حينما سقط طفل واحد في بئر كان العالم أجمع يراقب ويدعو كي يخرج سالمًا، كل الدنيا قامت ولم تقعد إلا بعد أن خرج، نعم مات لكنهم تحركوا، الآن عائلات تمحى وتدفن في باطن الأرض دون أكفان ولم يتحرك أحد هنا في خانيونس، الأرض الدامية التي أخذت أهلها في باطنها لتحنو عليهم وتحميهم من شرور العالم حولهم.

ستون جريحًا وأربعون شهيدًا حتى الآن وجاري البحث عن المزيد...

هل سيأتي من يثأر لأرواحهم؟

انتهى التقرير وهي تشاهد بفرح، كيف تمكن جيشها من محاربة هؤلاء المخربين لحمايتهم، هؤلاء أبطال لا يقهرون يحمون دولتهم ببسالة، تبث في نفسها عبارات الحماس والشعارات الزائفة وهي تعلم يقينًا أنهم سارقين لأرض ليست لهم، منازل أخذت عنوة من أصحابها، قالت بخفوت:

- نحن أولى بهذه الأرض منهم، لقد اختارنا الرب لدخولها.

سمعها «چون» الناقم على ما حدث له في هذه الحرب، فقال لها:

- أنتِ ودولتك مجرد لصوص، دعوتموني إلى هنا لأدافع عنكم، وأنتم الآن تضعونني هنا في مصحة للعلاج، كاذبون ومخادعون، لن يستطيع أحد إعادة ما فقدت.

نظرت إليه بغضب ثم أشفقت عليه، مُصاب، ضعيف، حزين وخائف من أن ينام، تذكرت حالته الصحية السيئة التي جعلته يقول هذا فربتت على كتفه راحلة.

أحد المصابين يزحف خارج غرفته باكيًا يهلوس بكلمات غير مفهومة، التف بعض الطاقم الطبي حوله ليفهوا ما يقول لكنه كان يبعدهم عنه ويردد:

– سيقتلونني، لن يدعوني أعيش، هذا الرجل الواقف هناك ينظر إليَّ في شماتة ألا ترونه؟!

يتلفت الجميع ليروا الواقف فلا يجدوا أحد، رأوا أنه بحاجة إلى مهدئ لينام، لكن ما يأخذه يجعل عينيه تغفو ويظهر أمام الجميع أنه نائم لكن داخله متيقظ خوفًا مما يراه، فالدماء التي أُريقت على يديه لها ثمن سيؤخذ ولو بعد حين، يصرخ محاولًا الهرب من تناول المهدئ يخبرهم أنه لا يفعل به شيئًا بل يبقيه متيقظًا أكثر لكن دون مقاومة، لكنهم لا يستجيبوا له فهو مريض نفسي بأعينهم ليس له سوى الدواء الذي سيوصف له من قِبل الطبيب المعالج له.

* * *

جلست «عائشة» بعد الاطمئنان على أمها في حديقة المشفى تتابع الأخبار، فتحت موقع التواصل الاجتماعي وكتبت مقالًا عمَّا يحدث: أتعلم ما معنى أن تتبخر جثة؟! هذا ما يحدث هناك، يذهبون لانتشال الشهداء فلا يجدوا سوى بقايا من عظام، أذكر أنني رأيت تقارير عن أشخاص لم يجدوا منهم سوى عظام الفكين، ولم يستدل على أنهم هم إلا بسبب وجودهم في منازلهم فعلموا شخوصهم.

قرأت تقارير عديدة عن تبخر الجثث عقب القصف، لا أعلم لأي مدى تصل درجة حرارة الانفجار التابع للقذيفة فأنا غير متخصصة في هذا المجال، لكن الغريب هو أن الذين نجوا من الهولوكوست هم الذين يقومون بالتطهير العرقي في فلسطين، ويقولون إنه يجب تحرير أرضها من المحتل الأجنبي، يقصدون بهذا العرب سكانها الأصليين.

جاؤوا إليها بدعم من دول أوروبا وشكلوا عصابات، كانوا يقتحمون المنازل ويخرجون أصحابها منها، عملوا هجانة وقطاع طرق ليتم الاستيلاء عليها.

شكلوا منظمات قتالية عسكرية منها إرجون التي كانت تنادي بحرية إسرائيل، ولهم عدة هجمات منظمة منها مذبحة دير ياسين الشهيرة بمساعدة منظمة شتيرن.

حاربوا جيش الانتداب البريطاني بمساعدة ألمانيا النازية في خلال ثورة فلسطين 1936 التي قامت ليتمكنوا من إتمام مهمتهم، القضاء على الفلسطينيين العرب إضافة إلى مهاجمة الجيش البريطاني.

كان شعار إرجون يتكون من خريطة فلسطين والأردن وعليها صورة بندقية كُتب حولها راك كاخ أي «هكذا وحسب».

رأى «رقيم» ما كتبته فتبسم لاهتمامها بقضيتهم، لم يعلم أنها تريد الذهاب إلى هناك مثل أخيها لكن والديها يمنعانها، علق على منشورها وشكرها على النبذة التاريخية التي ذكرتها، أجابت عليه بتعليق آخر تشكره على المتابعة،

سجلت خروج من الموقع، وعادت تتفكر فيما يحدث هناك وتذكر ما تقرأه عن تاريخ الأرض الذي تجدد مع بداية حرب الإبادة الحالية.

* * *

وصل إلى المنزل يحمل عدة حقائب في يديه، فتح الباب ودخل مباشرة، لم يكن هناك أحد، الجميع في المشفى للاطمئنان على حالة والدته، توجه إلى غرفته بعد أن خلع حذاءه وارتدى الآخر الخاص بالمنزل، أضاء الغرفة واضعًا الأكياس على الأرض وبعضها على مكتبه، بدأ يرتب حقيبته، تذكر وهو يضع القهوة كلام رفيقه هناك وهو يقول:

- «لم أعد أذكر مذاق القهوة أجلب معك الكثير يا أخي».

ما إن تذكر أنه انقطع الاتصال بينه وبين هذا الرفيق حتى تلألأ الدمع في عينيه، نفض عن رأسه هذه الأفكار التي راودته وهو يطمئن نفسه بأن كل شيءٍ سيكون بخير، سيجد أصدقائه سالمين وذويهم، يصبر نفسه أن الله لطيف بهم، عاد ليكمل ترتيب الحقائب، كان يضع الأطعمة بين الملابس حتى لا تؤخذ منه في أثناء دخول دولة فلسطين، كذا وضع بعض الأدوية الهامة حتى يتسنى له مساعدة المرضى هناك، كذا لم ينسَ الحلوى كما أخبره «رقيم» أنهى الترتيبات ثم جهز أوراقه في حقيبة صغيرة يحملها على كتفه مع حاسوبه وأجهزته الصغيرة، ثم توضأ ليصلي ركعتين وينام حتى موعد الفجر.

بعد مرور أكثر من ثلاث ساعات أيقظته جدته لصلاة الفجر فتح عينيه قائلًا:

– متى عدتِ يا جدتي؟

– أتيت وعائشة وجدناك نائمًا، تركناك حتى نوقظك للصلاة وتناول الإفطار معًا.

– خيرًا فعلتِ، سأقوم وأخرج للصلاة، حضرا طعامًا شهيًّا سأسافر اليوم، هذا آخر إفطار لي معكم حتى أعود بإذن الله.

مسحت رأسه وهي تدعو له أن يحفظه الله لها وجميع المسافرين معه، وأن يعيدهم إلى ديارهم سالمين، قَبَّل يدها وذهب ليتوضأ، رأى «عائشة» واقفة عند الباب تستمع إلى حديثه مع الجدة، تنظر إليه نظرة يعرف فيها الخوف والحب، توجه إليها قائلًا:

– لم تتغيري وحدك يا عائش.

– أعلم، لكنني ما زلت أخاف ألا تعود، لا تنسَ أنني أمك أيضًا.

– حسنًا يا أمي القصيرة، لكنني لم أعد صغيرًا انظري أين موضعك من كتفي.

لكمته في كتفه فتأوه ضاحكًا، يعلم كيف يضحكها وما يستفزها جيدًا، هرب منها إلى الحمام وهي خلفه، أغلق الباب وهو يخبرها أنها لن تستطيع الدخول، من خلفهما تأتي جدتهما وتخبرها أنها لم تعد صغيرة على هذه المشاكسات، ستتزوج قريبًا، يجب أن تتعقل، وهي في نفسها تقول «هو يعلم جيدًا أنني مجنونة، لا بأس من بعض المتعة إذَنْ» أمسكتها من أذنها وهي تقول:

– فيم تفكرين يا عروس المستقبل؟ متى سيكبر هذا العقل الذي في رأسك؟

– هل لدي عقل من الأساس؟

– ماذا فعل أوس لتكوني أنتِ نصيبه من بين الفتيات؟

– بل ماذا فعل ليرزقه الله فتاة مثلي؟

– يا ربي لن أستطيع إيقاف لسانك الآن، هيا لنصلي ونعد الإفطار قبل أن يعود أخوك من صلاة الفجر.

– ما زال هنا، لم يخرج بعد.

– أعلم، لينتهي ويخرج عليك الذهاب من أمام باب الحمام.

– خائف مني لأنه قال إنني قصيرة، رأيتِ كيف يخاف الخروج؟

أخذتها من يدها إلى الغرفة كي يستطيع الذهاب إلى المسجد، ما زالت تتحدث لم يسكت فمها حتى دخلت إلى غرفتها للصلاة مع الجدة.

خرج «عمر» ارتدى ثيابه وتعطر، ثم نزل إلى المسجد القريب، وقف إمام للمصلين بعد أن طلبوا منه هذا، صلوا وظل هو باقيًا يقرأ القرآن، انتهى وهو ينظر إلى كل زاوية في المسجد، سيشتاق إليه، سلم على الجالسين وهم قِلة وخرج عائدًا إلى بيته.

وصل فوجد الإفطار قد ملأ طاولة الطعام، جلس بينهما ليأكل ويتسامرون قليلًا، بعد أن انتهوا قام وهو يخبرهم أنه عليه الذهاب إلى «رقيم» الآن،

سيأخذ سيارة أجرة ويذهب، أخبرته أخته أنها ستوصله إليه بسيارة أمها، أومأ لها بالموافقة وقاما ليبدلا ثيابهما بعد أن جمعا الأطباق من على الطاولة.

وقفا يودعا جدتهما وهي تقبل «عمر»، تحتضنه بقوة خشية أن يكون آخر مرة تحتضن حفيدها فهي ترى ما يحدث هناك، لا أحد في أمان حتى الطواقم الطبية، لكن هذا قدره الذي كتبه الله له وهي تعلم أن الخير كله من الله، تركته يركب السيارة مع أخته، لم تدخل إلى المنزل حتى غابت السيارة عن ناظريها وابتلعها الطريق، ينظر إلى الأماكن نظرة وداع، سيشعر بالغربة هناك لكن ما في قلبه من حسرة تجعل وجعه خافتًا بلا ضجيج، عقله مكبل بقيود الخوف والرهبة، يُقدم على مكان لا أمان فيه كما اعتاد، لا أحد يعرفه، ترقرقت غلالة دمع في عينيه ثم التفت إلى أخته يطلب منها أن تهتم بأمه جيدًا، لا يريدها أن تتأذى في غيابه، أخبرته ألا يقلق، نظر إليها نظرة لم يكن فيها وعد بلقاء قريب بل وداع مسافر لن يعود، سرت رجفة في جسدها خوفًا مما يُقدم عليه فنزلت منها دمعة حارة أحرقت صفحة وجهها.

أوقفت السيارة أمام منزل «رقيم» وطلبت منه أن يتصل عليه لينزل ويذهبا لرؤية أمها كما وعدها، اتصل على رفيقه فنزل بعد سبع دقائق كاملة وهي جالسة تتأفف من التأخير، ما إن رأته حتى وبخته وهو ابتسم دون أن ينبس ببنت شفة، ذهبوا إلى المشفى لم تنزل معهما «عائشة» ذهبا وحدهما ليودعا «فاتن»، دخلا فوجداها لا تزال نائمة، اقترب «عمر» وقبل رأسها فانتبهت واستيقظت وبدأت تتحدث معه، أما «رقيم» أيقظ «كيرال»، قالت:

- هل ستذهبان الآن؟

- نعم يا أمي، لا أريدك أن تخافي، نحن جماعة سنسافر بصورة قانونية ونعود معًا بأمر الله.

- أنتم في حفظ الله يا بني ومن معك، أعدك لن أخاف.

- سأذهب الآن، سأفتقدك يا أمي، سأحاول التحدث إليكِ كل يوم إن استطعت.

احتضنه أبيه وأخبره أن ينتبه على نفسه وأن يرفع رأسه هناك، ابتسم له «عمر» ورقيم» وقالا:

- لا تخافا وسلا الله لنا التوفيق.

نظرا إليهما نظرة مودع، ثم خرجا ليذهبا مع سيارة الطاقم الطبي الواقفة أمام المشفى بعد أن أخذا أغراضهما من «عائشة» والوالدان ينظران من نافذة الغرفة عليهما حتى اختفت، جلست تبكي وزوجها يهون عليها ويخبرها أنه سيكون بخير، صعدت ابنتهما وجدتها تبكي فقالت لها:

- لقد أوصاني «عمر» ألا أدعك تبكين، من فضلك لا تحزني سيعود إن شاء الله.

أومأت لها ولا يعلم ما في قلبها إلا الله، قطعة من روحها ذهبت إلى حرب لن يوقفها إلا معجزة من رب العالمين.

الفصل السادس

آبولونيا

أنا بقايا مدينة قديمة، تقع خرائب أرسوف أو آبولونيا شمالي قرية الحرم (علي) قضاء يافا.

كنعانية الأصل، اسمي آبولونيا نسبة إلى آبوللو آخر آلهة اليونان.

موقعي وميناءي جعلاني محط أنظار الغزاة الصليبيين، احتللت في عام 1099 على يد جودفري أول حاكم صليبي لفلسطين.

استردني صلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطين 1187 م ليعاود الصليبيين احتلالي عام 1191 م في معركة أرسوف المشهورة (نسبة إلى البلد)، فُتحت على يد الظاهر بيبرس عام 1265 في جملة حملته ضد المغول والصليبيين في الشام.

ذكر أبو الفداء في مؤلفه تقويم البلدان أرسوف: بقوله «مدينة على البحر لها سوق وعليها سور، وهي الآن خراب ليس بها ساكن».

جهز حقائبه وجمع جزء كبير من أمواله، ذاهبًا إلى كاهن الأوراس لينقله إلى آبولونيا كما أخبره، ما زال يجهل الطريقة التي سينقله بها، غير مطمئن له، لكن ليس أمامه خيارٌ آخر، لن يضع ختم دولة الاحتلال على جواز سفره، لذا اختار طريق الكاهن، ركب سيارة أجرة بعد أن أنهى كل شيءٍ هنا، أوصى

أخيه على ابنيه، سلم على والديه، أما «أفنان» فقد ترك لها رسالة خاصة كي لا يرى دمعاتها إن قسى عليها، الآن يمكنه أن يقوم بما يفعل الأحرار بعد أن اطمأن تمامًا أنه لم يترك أي شيءٍ عالقًا، تنهد ثم قال: «بسم الله نسير ونسأل الله التيسير».

بدأت السيارة بالسير وزوجته وطفليه واقفين عند الباب ينظران إليها حتى غرب «منصور» من أمامهم كما تغرب الشمس، لاح من بعيد خيال رجل يسير قادم نحوهم، فلما اقترب إذا هو «فراس»، هرول إليه «سالم» فجثى عمه على ركبتيه فاتحًا ذراعيه ليحتضنه بقوة، علا صوتهما فأقبل والديه فرحًا بقدومه بعد طول غياب، اختفت «أفنان» عن الأنظار فهي لا تود التحدث إليه، صعدت إلى غرفتها مع الرضيع تحمله على يدها، وضعته في سريره فوجدت مظروف عليه اسمها، أخذته وبعد أن نام الصغير فتحته لتقرأ ما فيه.

عزيزتي أفنان..

ابنتي وأختي الصغرى، لم أستطع اعتبارك زوجة لأني ربيتك على يدي منذ وفاة أمك وأبيك.

كنت زوجًا مخلصًا لأختك، ولن يكون لي زوجة مثلها، اليوم ذهبت إلى المأذون الذي عقد قراننا وطلقتك، ليس لعِلة بك وإنما لأنني لا أريد الزواج بأخرى.

حين أصررت على الزواج كنتِ تعانين من انهيار عصبي حاد وفعلت هذا كي لا نخسرك أنت الأخرى، كانت نيتي عندما تتحسن حالتك أتركك.

فراس اختفى عن المنزل، تعلمين أنه يحبك، لذا رجاءً لا تتركيه، لن تجدي رجل مثله، ربيته مثلما ربيتك.

أوصيك على الطفلين، لا تجعليهما يشعرون بأنهم أيتام الأم، أنا ربما أعود يومًا ما إذا شاء الله لي، لكنني ذاهب إلى مكان قد لا يكون منه عودة، لذا حاولي أن تكوني بخير مع عائلتك التي تحبك، وأكملي دراستك لتكوني طبيبة كما كنا نحلم.

سامحيني إن قسوت عليكِ، تعلمين أسبابي جيدًا.

الوداع يا ابنتي الطبيبة.

منصور.

بكت حزنًا على فراقه بصورة مفاجئة، دق الباب فإذا «سالم» يطلب منها النزول، الجد والجدة يريدان التحدث معها، تعلم مسبقًا ما يريدان بعدما قرأت هذه الرسالة التي في يدها، ووجود «فراس» بالمنزل هذا يعني أنه تحدث مع أخيه ويعلم ما حدث.

* * *

بعد ثلاث ساعات وصل «منصور» إلى مقر كاهن الأوراس في صحراءه التي يعيش فيها هو وأقرانه، مكان مُعتم مخيف تسمع صفير الرياح فيه، لا يمكن أن يشعر إنسان سوي بالاطمئنان في مثل هذا المكان، لا سيما إن كان

سيقابل كاهن جبال الأوراس، واقف ينتظر قدومه يتلفت حوله ليرى من أي ناحية سيأتي، فجأة ظهرت أمامه فجوة كبيرة اختطف بداخلها إلى مكان آخر، سقط على الأرض ما إن رفع رأسه وجد الكاهن أمامه يرحب به، فسأله ماذا حدث، أخبره أنه نقله أولًا إلى قمة جبل بوعريف ليتمكن من نقله إلى آبولونيا مباشرة، وقف يتمتم بكلمات ويشير إلى مكان على الأرض وهو يرسم أشياء غريبة يبدو أنها طلاسم سحرية، ظهرت فجوة كبيرة يظهر بداخلها جزء من الصحراء فقال له الكاهن:

– هذه بوابة آبولونيا، عليك العبور وحدك يا منصور.

سأله عمَّا سيحدث ولم سيذهب وحده، بعد أن كان الاتفاق الذهاب عبر البتراء أولًا، لمَ تم التغيير إلى الداخل المحتل دون أن يخبره؟

أخبره أنه وجد طريقة أفضل ليوصله إلى الداخل دون المرور على دول أخرى، عليه أن يتهيأ ويحمل حقيبة ظهره جيدًا كي لا يفقدها في أثناء المرور عبر هذه الفجوة.

سمى الله في نفسه وربط حقيبته جيدًا، أخذ نفسًا عميقًا ثم دخل إلى الفجوة والكاهن ينظر ويتابع حركته داخلها، حتى اختفت الفجوة واختفى معها «منصور» قال الكاهن لمساعده:

– سيصل إلى آبولونيا في وقت قصير قد يكون خمس دقائق أو عشرًا ربما ربع ساعة على الأكثر، سيتابعه من خلال بلورته في كهفه السحري.

غادر إلى مكانه الخفي في جبال الأوراس مرة أخرى بصورة سريعة جدًا كأنه يحمل معه مصباح علاء الدين أو البساط السحري فيذهب إلى حيث شاء متى يشاء.

* * *

فتحت «عائشة» صفحتها على السوشيال ميديا وكتبت مقالة أخرى تقول فيها:

– أتعلم ما هو شعور من تبتر ساقيه بسبب انحصارها تحت ركام منزله؟!

لن تعلم أبدًا، لن تشعر بما يعانونه هناك.

بالأمس رأيت مقطعًا لسيدة حُبست ساقاها تحت حطام دارها، رأيتهم يحاولون إخراجها ويبعدون الجدار عن ساقيها لكن لم تجدي محاولاتهم نفعًا.

أتدري ما فعلوا لكي ينقذوها ويخرجوا ما يمكن إخراجه من جسدها؟!

بتروا الساق الأولى وهي تصرخ «يا رب ارحمني من هذا العذاب».

لم يتمكنوا من إخراجها بعد الأولى لم تكن محاولاتهم إلا عبثًا تُثاب هي عليه ويثابون هم الآخرون أنهم حاولوا ولم يتركوها حتى تموت وهي عالقة.

تحملت المرأة البتر الثاني وهي تصرخ وتسيل الدماء وتستحيل عليَّ رؤيتها من دموع العجز المنهمرة، رأيت نصفها يسقط فيتلقفه شخصين واقفين حتى يمسكون بها، كان جسدها كاملًا قبل القصف، وبعده كانت نصف جسد فقط.

لا أظن أن هناك أحدًا قادرًا على سرد الحكاية كاملة، تعددت فصول الوجع، ليس هناك ثمن لأي شيء، لا دمك ولا جُرحك النازف ولا ثمة دواء لما يشعر به قلبك.

كتبت كلماتها، وتصفحت الصفحات لترى ما يحدث هناك، لا جديد العالم ما زال يندد ويُعرب عن قلقه إزاء نهج المحتل في فلسطين، بعد أكثر من أربعون ألف شهيد ما زال قَلِق، لا تدري ماذا تقول فتصمت لأنها تعلم أن الصمت هو أبلغ وصف على الإطلاق، فإن لم تُخرس فمها ستحاسب على كل كلمة وتُصاب بخيبات لا حصر لها.

* * *

واقف أمام المخبز في طابور طويل لجلب بعض الخبز لأهله وأبناء أخواته، له أكثر من ساعتين عقب صلاة الفجر، أصبح الحصول على الطعام صعب، فضلًا عن جلب دواء، جاء رجل عجوز يربت على كتفه قائلًا:

– هل يمكنك جلب الخبز لي يا بني؟ صار لنا أسبوعان ما أكلنا خبزًا.

ترقرق الدمع في عيني «أمان الله» وطلب منه الجلوس وهو سيجلب له الخبز الذي يريده، بعد مرور أكثر من ساعة أخرى اقترب دوره فأخذ نصيبه من الخبز وطلب من الخباز نصيبًا آخر للعجوز فأعطاه زيادة ليست كافية، وأخبره أنه يريد أن يكفي كل الواقفين فلا يمكنه إعطاءه حصة أكثر من هذه، أخذها وذهب إلى العجوز وزاد له من حصته عليها وأعطاه علبة جبن مع الخبز وهو ينظر إلى الأرض في خجل ويقول:

– والله ما قدرت أحصل إلا على علبتين جبن أعطيك واحده والأخرى لأهلي بعتذر والله.

ودس له في جيبه بعض النقود ليتمكن من شراء أي طعام يريده، شكره العجوز ودعا له، تمنى أن يراه مرة أخرى، وقال له:

– إن أتيت هنا اسأل عن العم «مبارك» لا تنسني يا بني.

في اليوم التالي ذهب الجميع إلى المخبز كالمعتاد لكن هذه المرة تم قصف الحشد وأصبح المخبز ملطخ بالدماء، يبحث «أمان» مع طواقم الدفاع المدني عن أحياء بين الأجساد المترامية في كل اتجاه، الوضع يُدمي القلوب ويرهقها، فكيف بمن يلمس ويحمل القتلى بيديه؟!

عاد «أمان» إلى خيمته بعد وقت طويل، رأى طيف أمه أمامه فلمعت عينيه حزنًا، استقبلته أخته الصغرى وجدته مخضب بالدماء علمت أنه كان يساعد إخوانه، حمدت ربها على عودته سالمًا لكن قلبها يدرك أنه حينما يحين وقته لن تستطيع أن تفعل شيئًا سوى الدعاء، أعطته شربة ماء ثم تمدد على الأرض صامتًا ينظر في سقف الخيمة الباقية التي تؤويهم، يفكر في كونها لا تحمي من أذى قذيفة، كيف سيتمكن من حماية بقية أهله؟

يشعر بالقهر والخزي، لا يمكن لكلمات أن تعبر عن مكنون صدره، لكنه يشكي لربه ويعلم أنه لن يخذله، توضأ وصلى صلاة الظهر التي فاتته، خرج يسير قليلًا يجوب الشوارع التي شهدت على كل ما حدث، وجد العجوز «مبارك» جالس على ركام أحد المنازل، هرول إليه يسأله عما حدث فأخبره أن

هذا منزله وزوجته تحت الأنقاض ولا يمكنه إخراجها وحده، ذهب «أمان» مسرعًا ينادي الناس لينقذ من حُبس تحت الركام، جاء الرجال فأخرجوا سيدة وطفلة صغيرة بعد أكثر من ثلاث ساعات قضوها في إزاحة الركام والحطام، تلفت «أمان» حوله فلم يجد العم «مبارك» واقفًا كما كان، أكمل البحث معهم وهو يتمتم في نفسه قائلًا:

– إن ما نعيشه هنا لا يخفى على الله، إنما هو بلاء ورفعة.

* * *

حجارة مترامية بصورة ملفتة للأنظار، كأنها بقايا أثرية لقلعة ما أو شيءٍ مثل مباني ضخمة محطمة أعادوا بناءها من جديد، يتلفت حوله كي يختبئ عن أنظار أي شخص هنا لأنه لم يدخل البلاد بصورة رسمية فقد يتم ترحيله إذا رآه أحد، وضع كِبة على رأسه وبدل ملابسه إلى بدلة سوداء مثل الحريديم حتى يتحرك بحرية للوصول إلى هدفه المنشود، ما إن رأى الساحل حتى قال: «يا ربي كل هذا الجمال أخذوه منا، والله لا نتركه لهم بعد اليوم».

ظل يسير مدة وهو يتأمل البحر الذي تتلألأ مياهه مع غروب الشمس بدرجاته المتفاوتة في لوحة فنية بديعة، كانت ميناء قديمة والآن هي مزار سياحي يأتي الأشخاص ليشاهدوها ويلتقطون الصور، وصل إلى الطريق وأخذ سيارة أجرة إلى القدس، كان قد حفظ بعض الكلمات العبرية التي تساعده على التنقل أثناء تجهيزه للرحلة لكن ما زال قلبه متوجس من أن يُكشف أمره قبل أن يصل إلى أحد يساعده في مهمته، دخل المسجد الأقصى

وسط المستوطنين وهو يتقطع من داخله، يريد أن ينتقم منهم لما يفعلونه لكنه لم يستطع الآن، بعد خروجه تحدث إليه أحدهم يسأله من هو ومتى جاء؟

حدثه بالفرنسية فجلب شخص آخر يترجم له ما يقول، سأله عن اسمه فقال:

– موسى، من فرنسا.

سألاه هل وجد منزلًا أم نزل في فندق، أخبرهما أنه وصل اليوم وأراد أن يزور المسجد قبل البحث عن فندق، طلبا منه الذهاب معهما إلى فندق قديم ففعل وقلبه كادت ضرباته أن تتوقف إثر طلبهما هذا، لكنه لم يجد مفرًّا إلا أن يذهب معهما.

يرى جمال البلاد وجبالها المتشحة باللون الأخضر، مزارع أشجار الزيتون والبرتقال التي تزين الطرقات، كل هذه الخيرات، كل مكان هنا انتزع ليمتلكه أناس غير أصحابه الذين يموتون كل يوم من أجل إعادة جزء من حقهم، لكن دمهم هان وهُدر بلا رحمة من دعاة الرفق بالحيوان، لم يساوِ دماء أصحاب الأرض شيءٍ عند أي شخص، وإن هان دمهم على البشر فلم يهن على أرضهم فهي تتذكر ما فعلوا وستشهد به يومًا ما أمام رب العالمين، وستظل الأرض تذكر أصحابها ومن يزورها ممن يهمه أمرها بما يحدث ها هنا.

في اليوم الثاني له، ما زال الناس يعتقدونه يهوديًّا فرنسيًّا لتحدثه الفرنسية معهم، نزل من غرفة الفندق الذي أخذها، توجه ليتناول الفطور ويرى ما يمكنه فعله.

أخذ مطوية من الاستقبال عن يافا، ظل يجوب بناظريه في كل صورة، ولسان حاله: «كيف لنا أن نتركها لهؤلاء؟».

انتهى من فطوره وطلب سيارة تقله إلى يافا ليتمتع بمشاهدة المعالم هناك كما أخبر موظفة الاستقبال، جلس يحتسي قهوته حتى وصلت سيارة الأجرة، أخبره أحد العاملين أن السيارة تنتظره في الخارج، أعطاه بقشيش وهمَّ ليخرج لكن أوقفه رئيس العاملين هناك، يسأله:

- أين ستذهب؟

أخبره بالفرنسية أنه ذاهب إلى يافا فتدخلت موظفة الاستقبال لأنها فرنسية وترجمت له ما يقول، فسمح له بالذهاب، علم «منصور» أن هذا الرجل يشك في أمره وعليه أن يتحرك قبل أن يكتشف ما يخفيه.

وصل حيث وجهته التي أراد، برج ساعة السلطان عبد الحميد الثاني في يافا، نزل يُملِّي ناظريه برؤية معالمها جيدًا، يتنقل بين الأزقة يشعر أن الشوارع هنا تهدئ روعه وقلبه، كأنها تحنو عليه وتخبره أنها تشعر به بحبه لها وبخوفه عليها.

يسير في الأزقة مسالمًا لا يؤذي أحدًا، على حين غفلة رأى طفلًا فاقترب منه لكن الطفل قذفه بحجر وجرى منه فهرول خلفه محاولًا أن يعلم أي شيءٍ عن السكان الفلسطينيين هنا، اختفى الطفل وزاغ بلمح البصر، تلفت حوله لم يجد أحد لكن ما حدث أعجب، ضربه أحدهم على رأسه فسقط على الأرض فالتقمه آخر وأخذه كي لا يلاحظه أحد الجنود، وقد كان داخل

زقاق صغير في مكان ليس به كاميرات مراقبة، ضغط الشاب على مكان في الحائط بطريقة ما ففتح بابًا كأن بداخله ممر سري يؤدي إلى مكان آخر.

لا شيء سوى الظلام هنا، لا يشعر بأنفاس قريبة، لا صوت، ولا ضوء، فقط العتمة تعم المكان كله، تنهد وهو يقول في نفسه «لن يؤذونني، سيعرفون من أنا ويتركوني».

* * *

جالس في ردهة المشفى بعد أن خرج من غرفة زوجته يقرأ فيما تعلق بذهنه من تاريخ قديم، يحاول أن يستخرج شيئًا يستفيد منه هذا الجيل لكن ما زال عقله مشوشًا، بم يبدأ التاريخ طويل، عليه أن يبحث عن أهم اللقطات التي غيرت مسار الأمور، جاءه صوت من خلفه «اقرأ عن السلطان عبد الحميد» التفت «كيرال» خلفه فلم يجد أحد لكن الصوت قريبًا من صوت من يحدثه له مده، بحث عنه فبدأ يقرأ من النقطة المحورية في تاريخ بيت المقدس.

حكم عبد الحميد الثاني لأكثر من ثلاثين عامًا، واستطاع أن يحفظ الدولة من الانهيار بعد الحرب مع روسيا، وقمع تمرد كريت، وانتصر على اليونان، ودرَّب الجيش على أساليب القتال الحديثة، اشتهر بموقفه الرافض لتوطين اليهود بفلسطين، أو بيعها لهم، وهو الرفض الذي تسبب في خلعه من الحكم ثم النفي، وكان مؤسس الحركة الصهيونية آنذاك ثيودور هرتزل.

جاء في رسالة السلطان عبد الحميد ردًّا على محاولات هرتزل: «انصحوا الدكتور هرتزل بألا يتخذ خطوات جدية في هذا الموضوع، فإني لا أستطيع

أن أتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين، فهي ليست ملك يميني، بل ملك الأمة الإسلامية، ولقد جاهد شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه، فليحتفظ اليهود بملايينهم، وإذا مزقت دولة الخلافة يومًا فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن، أما وأنا حيٌّ فإن عمل المبضع في بدني لأهون علي من أن أرى فلسطين قد بترت من دولة الخلافة، وهذا أمر لا يكون، إني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة».

أغلق المدونة التي يقرأ منها، وأغمض عينيه مستسلمًا لأخذ قسط من الراحة، لكن كانت الأفكار تتلاطم داخل رأسه حتى غط في نوم عميق، فتح عينيه حينما أيقظته «عائشة» لتناول الشاي والكعك، رأى أمام عينيه فجأة السلطان عبد الحميد واقفًا أمامه، فرك عينيه فلم يختفِ، عَلم أنه يراه كما يرى الآخرين، سألته ابنته باهتمام:

- ماذا بك يا أبي؟

- لا شيء، أنا بخير.

- متى موعد سفرك يا أبي؟

- كان يفترض اليوم لكن مرض والدتك وسفر «عمر» أجبرني على البقاء.

- لا تخاف أنا هنا، اذهب إلى عملك ولا تقلق.

- أعلم أنكِ تستطيعين، لكن هناك بعض الأشياء المتعلقة بالرحلة لم تنتهي بعد، ويساورني بعض القلق، «منصور» لم يتصل منذ آخر مرة حدثته، لا أعلم ماذا حدث؟!

- لم لا تتحدث إلى «فراس» لتطمئن؟!

- لا يعلم أين ذهب، كل ما أخبرني به أنه سافر.

- ماذا عن «أوس» تحدث إليه؟

صمت «كيرال» يفكر، اختفى الجميع فجأة، ما هذه الرحلة التي انتهت قبل بدايتها؟ هل ما يحدث له علاقة بمن اختطف صفية أم بمن رآه في الجامعة؟ ظل على هذه الحال حتى رأى «رامون» مرة أخرى أمامه فانتفض ها هنا، أمسكته ابنته تهدئ انتفاضته نظر إليها وإليه، شعرت أنه يخفي شيء يراه ولا يخبرها به، فسألته:

- هل هناك شيءٌ؟ ترى شيئًا يا أبي؟

والآخر يبتسم له ويسمع، أخبره أنها لا تراه ولا يمكن لأحد أن يراه غيره هو، يحاول «كيرال» فهم ما يحدث ويفكر، فقال له:

- أعلم ما تفكر فيه بمجرد أن يمر على عقلك، حاول أن تسترخي ولا تخاف، أريد منك خدمة فقط.

لم ينبس «كيرال» ببنت شفة، وتنهد بقوة ليستمع لما يقوله هذا الكائن الواقف أمامه، طلب من ابنته إحضار كوبٍ من الماء ليطمئن أنها لن تؤذى من هذا الشيء، فور خروجها بدأ يتحدث إليه ويطلب منه عدم الذهاب في هذه الرحلة، وإن ذهب سيلقى أهله هنا مصير مجهول، سيختفون إلى الأبد ولن يجدهم أحد، ازدادت ضربات قلبه وتسارعت خوفًا على عائلته، فهو

لا يعلم ماهية هذا الذي يتحدث معه الآن، لكنه جرب الفقد ولا يريد أن يخوض التجربة مرة أخرى بسبب رحلاته التي يذهب إليها.

تراقبه من بعيد ابنته لتعرف ما يحدث معه، وجدته يتحدث مع اللا شيء، أغمضت عينيها تتذكر ما كان يحدث لها في أكاكوس وسيفار ورؤيتها لظلال ماضية أمام عينيها، كأنها دخلت آلة الزمن في هذا الوقت ترى القتل والحب والبغض في آن واحد، تراهم بأجسادهم كأنهم أحياء وليسوا أمواتًا، استعاذت بالله ثم عادت إلى أبيها تحمل كوب الماء، أعطته له ومسحت على رأسه قائلة:

– لماذا أنت شارد يا أبي؟ خائف على عمر أم على أمي؟

– سيكونان بخير، أنا منشغل بأمر آخر يا ابنتي، دعيني وحدي قليلًا، اذهبي إلى أمك.

ذهبت لكن قلقها يزداد لصمته، لم يكن هكذا من قبل، هل هو متعب من الحادث الذي تعرض له؟

زفرت بضيق متمتمه «كل شيءٍ بخير، لن أزيد الوضع سوءًا لسوء ظني»

دخلت إلى أمها وجدتها كانتا يتحدثان معًا عن طفولة عمر، يبدو أنهما يبددان خوفهما، تحكيان كيف تغير، لقد كبر وأصبح رجلًا مسؤولًا، يعلم أهمية مساعدة إخوانه ولو كانوا في قارة أخرى، ابتسمت «عائشة «قائلة:

– كلنا تغيرنا في هذا العام، لقد كبرنا عمرًا فوق عمرنا، ما نراه من نفاق العالم مدعي الإنسانية غيَّر نفوسنا جميعًا، ليس عمر وحده بل الجميع.

التفتا إليها وهما تؤكدان كلامها، فهما يعرفان أنها تغيرت وكل من يعرفونه حدث له نفس التغيير، قالت لهما:

– كنت أقرأ اليوم عن شاب اسمه يحيى عياش، جميل هذا الاسم، هذا أفاد بلده بما تعلم، كان مهندسًا كهربائيًّا، من مواليد رافات بالضفة الغربية، قام بعمليات كثيرة ضد المحتل حتى اغتالوه بعبوة ناسفة في هاتف كان يستعمله أحيانًا، هذا ما فعله المحتل المخبول الآن في لبنان، زرعوا عبوات في أجهزة البيجر في لبنان وأصيب وقتل بعض الناس، هؤلاء لا عهد لهم، لا يعرفون سوى شيء واحد فقط وهو الدم.

– يا ابنتي هذا اختبار وتمحيص، كما أخبرتك في قصة سعد ﷺ، هم دومًا ينقضون العهود والمواثيق لا جديد، ثم إن هذه أرض رباط، هم فئة اصطفاهم الله لهذه المهمة التي لا يقوى عليها غيرهم.

– أعلم يا جدتي لكنني أشعر بالخذلان، يوجعني قلبي عليهم، أقرأ وأتعلم لأروي حكايتهم، لكنني صدقًا أتألم لما أراه.

قالت «فاتن» بهمس شديد:

– هذه ضريبة الدفاع عن الوطن والهوية يا «عائش»، تعلمين أن الشعوب إذا أرادت الاستقلال والتحرير دفعت ثمن هذه الحرية الدماء فقط، ويدفعونها بحب وعقيدة، هذه بداية التحرير وما زال الوقت لم يحن بعد، لكن ما حدث غيَّر كل ما فعلوه ليحافظ على صورتهم أمام شعوب العالم، الآن الجميع يعلم من المجرم ومن صاحب الحق.

* * *

2 أكتوبر 2024

استيقظا من نومهما وقد نويا متأهبان على ما خطط له، في قلب تل أبيب المدينة التي سُلبت من أهلها، خرجا معًا بعد أن استعدا لمهمتهما، استطاعا التسلل إلى داخل إسرائيل، وقاما بطعن أحد الجنود والاستيلاء على سلاحه الآلي، ثم تنفيذ العملية في موقعين مختلفين في قلب تل أبيب، أحدهما داخل محطة للقطارات بشارع أورشليم في يافا، يسيران وهما يتذكران كم وقت أمضياه ليقوموا بهذه المهمة، الآن فقط يأخذان بثأرهما، أو جزء منه، بعد أن ظل صديق لهما هنا ورآهم يوزعون الحلوى ويتراقصون حين قتل «هنية»، الآن فقط سيهدأ قلبيهما قليلًا ولتبرد جزء من نار صدرهما، قتلوا سبعة وأصابوا ستة عشر، وتمت مهاجمتهما من قِبل أحد المستوطنين فاستشهد أحدهما والآخر حالته خطرة في المشفى.

هرج ومرج، أناس تهرب هنا وهناك خوفًا على حياتهم، يخشون الموت، يعيشون آمنين في مكان ليس لهم، يتناقلون الأخبار فيما بينهم ليثبتوا للعالم أجمع أنهم أبرياء وأصحاب الأرض همجيون وحشيون، جاؤوا من كل حدب وصوب إلى أورشليم لاحتلالها بحجج واهية، هذه الأرض المقدسة التي رفض أجدادهم دخولها وكُتب عليهم التيه حينها، فعلوا كل أنواع الفسق مع نبي الله موسى عليه السلام، صراعهم مع أهل فلسطين ليس وليد هذا العصر بل له تاريخ على مر العصور، حتى الفتح الإسلامي لبيت المقدس كانوا يمثلون نسبة ضئيلة.

قبل هذه الفترة بدأت الحملات الصليبية إلى بيت المقدس بحجة حماية المسيحيين ومقدساتهم بدعوى سوء معاملة الحكام المسلمين لهم، وعلى الرغم من هذا الادعاء، ففي طريقهم إلى القدس انتهج الصليبيون القتل بحق كل من مروا به، وكانوا يطرحون على الجميع إما التعاون معهم وإما القتل، فتعاون بعض الناس حفاظًا على حياتهم.

وبعد حصار لعدة أيام مارسوا في خلالها طقوسًا دينية عند أسواق المدينة المقدسة، اقتحم الصليبيون القدس وأوغلوا ذبحًا وقتلًا، وكانت البداية بمجزرة جماعية قتلوا فيها الناس بالشوارع والمنازل والأزقة، لدرجة أن القتل استهدف يهودًا ومسيحيين ومسلمين لأنهم جميعًا ذوو ملامح عربية.

وفي مذبحة استمرت عشرة أيام يرجح المؤرخون أنها أودت بحياة نحو مئة ألف مقدسي، أحرقت الجثث وقطعت الأصابع وشقت البطون بحثًا عن الذهب والجواهر، وحول الأقصى إلى إصطبل للخيول، وقيل أنهم كانوا يشربون دماء الأطفال في كؤوس الخمر.

* * *

سماء صافية، لون بديع لا يشبهه مكان في العالم، جميلة كمنزل دافئ وقت هطول المطر، جبال خضراء كثيفة كأنها بشموخها شاهدة على قوة جذور هذه البلد، بعد مرور أكثر من ثماني ساعات ترفرف قلوبهما فرحًا لأنهما وصلا حيث وجهتهم التي حلموا بها، تمنوا لو كان لديهم أجنحة فيذهبوا بها دون أي مشقة للدخول، تنهد «رقيم» بقوة قائلًا:

– لقد عُدت يا «عمر»، هذه الجميلة التي لم أرها يومًا، لن أتركها مرة أخرى بعد أن رأيت جمالها.

التفت إليه «عمر» مبتسمًا:

– لكنك ستعود معي يا «رقيم»، لن يسمحوا لك بالبقاء هنا.

– لا تقلق، سأرتب الأمر كله، لكنني أريد البقاء معهم للمساعدة.

زفر «عمر» بضيق وهو يفكر كيف يمكنه البقاء وقد وعد أمه أنه سيعود، ومن بره بها لن يرجع عن عهده معها، سيحاول جاهدًا ألا يُقلق قلبها عليه، يكفيها خوفها أن يصاب بأذى، قاطع شروده «رقيم» يسأله:

– فيمَ تفكر يا رفيق؟

– بأمي، أخشى أن تصاب بأذى وأنا لست جوارها.

– لا تخاف، عائلتك جوارها وكل الأطباء، ليس عليك إلا الدعاء.

انتبها على صوت مضيفة الطائرة وهي تخبر الركاب أن يربطوا أحزمة الأمان للهبوط في مطار بن غوريون الدولي، تسارعت ضربات قلبه بشدة لا يعلم أهو سعيد أم حزين، مشاعره مختلطة، سيدخلها بصورة نظامية بختم المحتل على جواز سفره وهذا ما كان يرفضه وجميع من معه، لكن ليس لديهم خيار آخر.

نزل الطاقم الطبي على أرض فلسطين، مشاعرهم مضطربة، يرون العدو أمامهم مباشرة لكنهم لا يستطيعون فعل شيء، عليهم المحافظة على هدوءهم حتى يذهبوا لإخوانهم عبر المعبر الوحيد الذي يمكنهم الدخول من خلاله، معبر كرم أبو سالم.

مكان شاسع غاية في الجمال والتنظيم، لا ينقصه إلا أن يكون تحت سلطة فلسطين وليس إسرائيل، يتلفت «عمر» حوله على وجهه أمارات الغضب، لكزه «رقيم» وهو يشير إليه ألا يُبدي غضبه هكذا، فابتلع غصة حلقه وحاول أن يكون طبيعيًّا.

بعد مرور ساعات من وصولهم انتهت الإجراءات اللازمة لدخولهم إلى غزة، حيث موطن الرباط الأخير في الفترة الحالية، خرجوا من المطار بسيارة تابعة للهلال الأحمر، كان «عمر» و «رقيم» يتحدثان عن المطار متى بُني وكم هجمة تعرض لها على مدار السنوات الأخيرة، قال «رقيم»:

– أذكر حادثين، الأولى اختطفت طائرة على يد أربع فلسطينيين، والثانية سميت بمذبحة اللُّد وهذه كانت على يد ثلاثة يابانيين مؤمنون بالقضية الفلسطينية.

سرح «عمر» بتفكيره وهو يتأمل الطريق إلى المكان الذي سيذهبون إليه حتى يُسمح لهم بدخول غزة، ويتمنى بداخله الذهاب بسرعة لأنه لا يطيق الانتظار.

فجأة صرخ «عمر» على السائق ليتوقف فضغط الآخر على المكابح فتحرك الركاب كلهم إلى الأمام من التوقف المفاجئ، ترجل عمر من السيارة وذهب إلى مقدمتها ليساعد من صدمته السيارة، وجد رجلًا عجوزًا، اطمئن عليه وجد به بعض الكدمات البسيطة، ساعده على الوقوف فشكره العجوز وسأله:

- ما اسمك يا بني؟

أجابه «عمر» وسأله هو الآخر عن اسمه فقال له:

- اسمي «مبارك» نادني العم مبارك إذا قابلتني ثانية.

ذهب به إلى الرصيف والعم يستند عليه، في صمت ووجوم تام من الطاقم الطبي الذي بداخل السيارة، يرون «عمر» يتحرك ويتحدث لكنهم لا يستطيعون رؤية مع من يتحدث!

الفصل السابع

جباليا

جبال راسيات لم يكونوا مثلنا يومًا، يُقدمون أرواحهم فداءً لأرضهم، هم منا ونحن منهم، لكن شتان بيننا وبينهم.

ينقل الأخبار كآخر صحفي بقي هناك وحده، ينقل لنا المشاهد المفجعة، وحده يطوف بين الشوارع مع إخوانه لينقل لنا الحقيقة كاملة من غير نقصان، رغم قلة الزاد والعتاد بقي هناك ولم يذهب إلى مكان لعَلَّه يكون آمنًا في بلدة لا أمان فيها سوى اسمه «أمان الله»، وأخشى ما يخشاه من يشاهد الأخبار عن طريقه أن تطاله يدي أعدائه، ويدعون الله أن يحفظه وتنتهي هذه الحرب التي بدلت العالم كله.

يتصفح المواقع الإخبارية صباحًا؛ ليطمئن على بقية مناطق القطاع، صُدم عند قراءة خبر على موقع عبري كأنه تلقى ضربة قوية على رأسه، أحاسيسه مضطربة، عقله مشوش هل هذا الخبر صحيح؟

يرى الصور التي نزلت مع الخبر ويردد:

– هو والله إنه هو، يا لطيف اغمرنا بلطفك ونجنا، صرخ بأعلى صوت لقد استشهد صاحب الطوفان، يا أهل العزة لقد استشهد كما تمنى وهو في الميدان.

ساد الصمت فلا تسمع إلا همسًا، تبدلت الوجوه، أمارات الحزن تعلوها، حتى قال طفل صغير:

- إنه لجهاد نصر أو استشهاد.

يرى «أمان» الفيديو الذي انتشر عقب انتشار الصور يتحدث وصوته متحشرج، يكتم حزنه والدمع في مقلتيه واضحًا للعيان لكنه يمنعه من الخروج، يبتسم وهو يراه لآخر رمق في حياته يقاوم ويقاتل، أعلنت الحركة أنه استشهد، والعدو يوزع الحلوى ويقيم الاحتفالات، جاء موعد البث المباشر له.

- مرحبًا «أمان» كيف حالكم؟ أخبرنا ما الوضع في القطاع.

- نعم «أكرم» الجميع هنا حزين على القائد، وقد قمنا بعدة لقاءات مع السكان هنا ومنهم من قال إنه كان سندًا لهم، أخًا، وأبًا.

- نعم، «أمان» وكيف هي الغارات هل ما زالت مكثفة على القطاع؟

- جباليا هنا تتعرض للإبادة منذ خمسة أيام وأكثر، يحاولون تهجير السكان قسريًّا عن طريق القصف، فضلًا عن سياسة التجويع المتبعة منذ بداية الحرب، الآن وصل عدد الشهداء هنا إلى ثمانين شهيدًا بينهم نساء وأطفال.

انتقل «أكرم» إلى مراسل آخر وانتهى لقاؤه المباشر مع أمان فجلس الآخر يكتم دمعاته ويدون ما يحدث كما اعتاد على صفحته على السوشيال ميديا.

اليوم 17 أكتوبر 2024

استشهاد القائد يحيى السنوار

في أرض المعركة بين الركام والحطام يقاوم لإعلاء كلمة الله ﷻ، ولتحرير دولته هو ومن معه.

جالسًا منهكًا من اشتباكه مع العدو بعد أن أصيب، لكنه ما زال يقاتل، يلقي عليهم القنابل ويطلق النيران، دخلت المبنى المتحصن به مسيرة تابعة للعدو، ما إن رآها ألقى عصا في يده عليها، لآخر لحظة روحه تأبى الخضوع ويحارب بما يملك في يده رغم إصابة جسده بشظايا ويده اليمنى المبتورة، لم يستطيعوا القضاء عليه بالمواجهة فقصفوا المبنى لينتهي ويموت هذه الموتة الشريفة، لم يكن يعرف العدو من هو، وفي اليوم التالي في أثناء تمشيط المنطقة وجدوا جثته بين الركام، أخذوها معهم بعد أن قاموا بتصويره ووضعها على الصفحات تحت عنوان «قتلنا السنوار»، والحفلات لم تنقطع من حينها في تل أبيب على الشواطئ وفي الشوارع.

وصفه السياسيون بأنه خطط لأسود يوم في تاريخ إسرائيل، رجل واحد بأمة كاملة، يعيد شرفها ويحافظ على عواصمها.

في تل السلطان برفح، استشهد القائد ومن معه، والعدو أخذه للتأكد أنه هو، يريدون أن يتفاخروا ويسعدوا بقتله، لكن السعيد هو الشهيد وليس عدوه، لأن المقاومة ستكون أقوى ومن يأتي سيكون خير خليفة لخير قائد، ولأنه وضع حجر الأساس في طوفان الأقصى وشاهد أعداءه يتساقطون واحدًا تلو الآخر.

أتخيل شعور الطبيب الصهيوني الذي سيقوم بتشريح جثته، لا بد أنه سيتحدث إليها ويخبرها أنه سيمثل بها كما شاء دون أن ترف له عين، ولن يمنعه أحد، أظنه لن يذهب إلى منزله سيبقى جوار الجثة لأنه لم يتخيل قط أن يحصل عليها، كانوا يروجون أنه مختبئ تحت الأنفاق وسط الأسرى يتحصن وسطهم كدروع بشرية.

الصدمة تخيم على الأشخاص المؤيدين، ليس لكونهم غير مصدقين موته أو معترضين على قضاء الله، إنما لأنه ذو مكانة خاصة في نفوسهم، لا أظن أن هناك قائدًا محبوبًا مثله في أي مكان على وجه الأرض، ولا أبالغ فيما أقول فقد كان شوكة في حلق الصهاينة على مدار أعوام حتى ظنوا أنهم استفاقوا بموته وأن المقاومة ستضعف بعده، لكن ما حدث أظهر القوة الكامنة لديهم وأنهم لا يقفون على قائد بل يكملون مسيرته التي بدأها على أكمل وجه.

* * *

موسيقى صاخبة واحتفالات، حلوى توزع، ورقص بصورة هستيرية كأنهم مجانين يترنحون، فتح «چون» عينيه يسأل الممرضة الجالسة بجواره:

ماذا حدث؟ هل انتهت الحرب؟

ابتسمت له تخبره أنهم اغتالوا قائد العدو، ابتسم بجانب فمه دون أن يُبدي أي اهتمام لما قالت، فسألته:

– لقد أخذوا ثأرك، عليك أن تشكرهم.

– أشكرهم حينما تنتهي الحرب ويعيدون إلي ما فقدته، قبل هذا لن أشكر أحد.

– أنت شخص مريض ناقم على كل شيء.

– تخيلي أنا شخص بالغ أرتدي حفاضًا لأنني أصبت بتبول لا إرادي بسبب حرب دخلتها دولتك ضد أصحاب الأرض، عليكِ أن تعترفي أنكم لصوص.

– لا أريد خوض جدال معك، أعلم أن أعصابك تالفة، عليك التحلي بالصبر حتى تشفى.

نظر إليها بغضب أكبر طالبًا منها مغادرة الغرفة وتركه وحده، لا يريد رؤية أحد، خرجت وفور أن أصبح وحده حتى ظهرت أمامه ضحاياه من جديد لكن هذه المرة كانوا كُثر، لن يستطيع التخلص منهم وحده، حاول أن يصرخ بأعلى صوته لكن أحدهم كتم فمه بالوسادة لئلا يصدر صوتًا، ظل ينازع ويتحرك في موضعه للنجاة بنفسه حتى سكن وهدأت جوارحه عن الحركة فكان أسكن ما كان، قُتل وهو يظن أن ضحاياه الذين قتلهم يلاحقونه ليقتلوه حتى حدث ما ظنه، فكما قيل من خاف من عفريت ظهر له.

أصدرت الأجهزة صفير يدل على أن حياته انتهت فانتبه الفريق الطبي لصوت الصافرات فدخلوا غرفته فوجدوه ميتًا، حاولوا إنقاذه لكن لا شيء يمكنه أن يعيد روحًا، طالما أمر الله بقبضها وفاضت إلى خالقها، فلن يسعفها أحد.

* * *

يقرؤون الأخبار ويشاهدوها عبر هواتفهم في أثناء الطريق إلى غزة حيث حملة الإغاثة تذهب، صرخ «رقيم» فجأة حين رأى خبر وفاة السنوار فأمسكه «عمر» يشدد على يده كي يصمت، لا يمكنه فعل هذا الآن، هم داخل تل أبيب وإن لاحظ أحد قد يمنعوهم من مساعدة المصابين في غزة، نظر إليه والدموع تملأ عينيه قائلًا:

تمنيت لو قابلته يا أخي.

- هذه ميتة مشرفة، عليك أن تفخر به لا أن تبكي عليه.

- لا أتحمل يا «عمر».

احتضنه «عمر» فبكى «رقيم» حتى سكن، سألت أحد الطبيبات هل كانوا سيتمكنون من رؤيته؟ أخبرها «عمر» أن هذا أمر شبه مستحيل، ردت بسؤال آخر وهو كيف كان يريد «رقيم» رؤيته؟

فأجابها عمر: وهل الأحلام مستحيلة؟

قال «رقيم»: جئنا لنقدم خدماتنا لإخواننا ولن نتوانى لحظة حتى نتمكن من إنقاذ من يمكننا إنقاذه منهم.

مروا على نقطة تفتيش عسكرية، وقفت السيارة وترجل السائق، أعطاهم التصاريح ليدخلوا إلى القطاع عن طريق معبر كرم أبو سالم كما كتب لهم في التصاريح، لكن هذا الجندي لم يرد إدخالهم وأبعد السائق وطلب منه العودة بالسيارة إلى الخلف ليتم تفتيشها جيدًا، اقترب أحد الجنود من السيارة وجمع جوازات سفرهم جميعًا واقتادوهم إلى مكتب نقطة التفتيش، ظلوا ساعات

يستجوبونهم، ويستعلمون عنهم حتى تركوهم يمرون، تنفسوا الصعداء بعد أن سُمح لهم بالدخول إلى القطاع.

كان «عمر» يقرأ عن تاريخ المقاومة فوقعت عينيه على خبر عن الانتفاضة الأولى:

«أول استشهادي في الانتفاضة الأولى كان من كتائب القسام وهو ساهر تمام، حين فجّر سيارته في مستوطنة ميحولا في بيسان في 1993/ 4/ 16».

«أول من وثق كمين مسلَّح بالصور الفوتوغرافية في عملية مسجد مصعب بن عمير في حي الزيتون بغزة بتاريخ 1993/ 12/ 13، وقتل خلالها ثلاثة جنود إسرائيليين، وكان عماد عقل قائد الهجوم».

فجأة وقع أمامه مقال عن الرئيس السابق «ياسر عرفات»

هو ثالث رؤساء منظمة التحرير الفلسطينية منذ تأسيسها عام 1964، حيث تولَّى رئاسة مجلسها التنفيذي من عام 1969 وحتى وفاته عام 2004، كان القائد العام لحركة فتح «أكبر حركات منظمة التحرير» والتي أسَّسها ورفاقه عام 1959.

توفي في 11 نوفمبر 2004 بمستشفى بيرسي العسكري في باريس.

انتبه إلى سيرهم داخل القطاع فأغلق هاتفه، كانت رائحة الموت تنتشر في الجو، دم مختلط بالتراب، حطام في كل مكان، وجوه منهكة تنظر إلى السيارة، خيام تنتشر في شتى المناطق البعيدة عن كومات الركام، أرض تسمع صراخها كلما سِرت عليها لكنها لا تعرف معنى الاستسلام مهما حدث، وكلما فقدت شبابَ سيأتي غيرهم ليقاوموا المعتدي.

تحدث «رقيم» إلى رفاقه عيناه تذرفان الدمع قائلًا: «أتعلمون أن هناك سرديتين لهذه البلد، سردية فلسطينية وسردية صهيونية، حاولوا طمس تاريخنا بشتى الطرق ورغم ذلك ظلوا بلا تاريخ وهوية، يزيفون الهويات والأحداث ليخبروا العالم بسرديتهم، بأنهم مضطهدون يتعرضون للطرد والإذلال من الدول الأخرى، لكن في حقيقة الأمر هم من خطط لكل فساد يحدث، هم من اخترعوا مصطلح الإرهاب، يقولون أن من يدافع عن أرضه إرهابي، إذَنْ كيف بالسارق الذي يستحل منزل غيره ومزرعته وكل شيءٍ يخصه، بل ويعرضه للبيع ويكتبون وثائق مزيفة تثبت ملكيتهم».

التفت إليه «عمر» بعيون تلمع بالدمع حزنًا على ما يراه أمام عينيه وعلى ما يقوله صديقه، قائلًا: «ألم تخبرني أن الله لن يضيع الأقصى وأهله إذَنْ أبشر بالخير».

صمت «رقيم» صمتًا مميت حتى وصلوا إلى المستشفى الميداني لينضموا إلى الأطباء هناك، يتلفتون حولهم دماء متناثرة، أطفال مبتورة أوصالهم، وآخرون يصرخون من الشظايا التي غرزت في أجسادهم النحيلة، اجتمع عليهم الجوع والألم في آن واحد، صراخ عالٍ، جدة تنعى أحفادها، أخرى تبحث عن ابنها تخبرهم أوصافه، وأخرى تقول والله مات بدون ما يأكل، كيف يتحمل هؤلاء ما يحدث، يفكر «عمر» الذي لا يعلم ما يفعل ليبدد خوفهم، كيف يطمئن قلوبهم؟

وجد طفلة جالسة أمامه على الأرض على وجهها خط من الدماء وبعض الشظايا على جسدها، ملابسها المهترئة من أماكن عدة جعلت الجروح واضحة للعيان، حملها وسألها ما اسمك؟

عينيها ثابتة دون حراك، شاخصة من هول ما رأته، أعاد عليها السؤال فقالت وهي بنفس الثبات: «ديمة».

مسح على رأسها بعد أن وضعها على سرير يسألها أين عائلتك، أجابته:

– أنا لم أرهم، لكنني سمعت صوت الصاروخ، أمي وإخوتي كانوا معي، لكنني خرجت وحدي من تحت الركام.

بكى وبدأ يداوي جروحها، وينظفها، يخبرها كم هي جميلة شعرها الأسود وعينيها الملونة بلون الزيتون الأخضر، نظف وجهها جيدًا وأخرج كل الشظايا بمساعدة رفيقته في الفريق الطبي، وأعطاها حلوى من حقيبته، ابتسمت له بعدما انتهى تسأله: «ما اسمك؟».

قال لها مبتسمًا: «عمر».

بكت بصوت عالٍ ومدت شفاهها إلى الأمام وهي تخبره أن أخاها اسمه عمر وأمها الحامل معه تحت الركام، حتى إنها لم تر سوى ساق أبيها، احتضنها «عمر» وهو يقول بداخله: لقد تحملت هذه الطفلة الكثير.

يحاول أن يتماسك لأنه يكاد يجن مما يرى، هذا ليس فيلمًا في هوليوود، إنما هو واقع في غزة والعالم يدير وجهه عنه.

* * *

أصوات الأمواج تزداد وتعلو ولا أحد يسمع صراخه، لا يعمل كذلك هاتفه، كيف سيخرج «أوس» من هذا المأزق؟ متى سيتخلص من هذا اللعين الذي يظهر له في كل مرة؟

أخرج حاسوبه من حقيبته وقام بتوصيل وصلة الإنترنت التي معه ليرى هل ستنجح محاولته في إجراء مكالمة فيديو، فلم تفلح، أرسل موقعه إلى «كيرال» بعد أن فعل خاصية التجوال على هاتفه، وأخبره أنه في خطر.

سمع صوت الباب يفتح، جاء خاطفه من جديد، ازدرد ريقه وحاول أن يثبت أمامه ولا يخافه فقال: «ماذا تريد مني؟ ألم تنتهِ لعبتك بعد؟».

ابتسم بمكر قائلًا: «أخبرتك أنني سأعود وأنتقم منك، لماذا لم تصدق؟».

– تعلم أنني لا أخاف منك، ولن أفعل.

ابتسم وهو يقول: «أستطيع شم رائحة خوفك يا «أوس»، بل وأسمع ضربات قلبك المتسارعة كذلك، لا تحاول خداعي، هذه المرة أنت وحدك لن ينقذك أحد من بين يدي».

– الله يرانا وهو خير الحافظين.

احمرت عيناه وهو يخبره ألا يذكر اسم الله ولا أي شيء وإلا سيقضي عليه الآن ولن يعرف أحد طريق جثمانه، تركه وخرج، أما «أوس» فقد صرخ مرارًا لكن لم يسمعه أحد، كأنما حُبس داخل حقبة زمنية أخرى، أو مكان مجهول غير الذي ظهر له على برنامج تحديد المواقع.

* * *

في مطار الأردن هبطت طائرته حوالي الساعة الثالثة مساءً، يظن أن كل شيء انتهى وأنه سيأخذ زوجة أخيه وابنه ويعود إلى بلده ثانية دون أن يحدث أي شيء هنا، لكن الحياة ليست وردية كما نظن، وهناك جانب مظلم في كل ما حولنا ونحن نحاول أن ندير وجوهنا عنه، جلس في مطعم المطار ينتظر أن يأتيه الشخص الذي تحدث معه قبل وصوله إلى هنا، انتظر أكثر من ثلاث ساعات لكنه لم يأتِ، همَّ ليغادر لكن جاءته رسالة على هاتفه كتب فيها عنوان عليه أن يذهب إليه مباشرة، ذهب إلى موظف الاستقبال ليسأل كيف يمكنه الذهاب إلى هذا العنوان فأخبره الموظف أنه سيطلب له سيارة أجرة تأخذه إلى حيث يريد، انتظر دقائق أخرى حتى وصلت السيارة فركب وبدأت رحلته إلى العنوان الذي تم إرساله إليه من هاتف «منذر» الذي حاول أن يتصل به مرارًا لكنه كان مغلقًا.

وصل إلى العنوان المنشود، نزل ليذهب إلى المنزل فرأى زحامًا شديدًا على الباب وسيارة إسعاف تنقل شخص ما، اقترب ليرى ما يحدث فإذا بها «صفية»، جثى على ركبتيه وهو يسأل ماذا حدث؟ وأين الصبي؟

رفع إليه «منذر» عينيه وقد بدت عليه آثار البكاء، رأى شاب متوسط الطول ليس بدين ولا نحيل يرتدي نظارة، وشعره أسود مموج، سأله: هل أنت الطبيب «يونس»؟

أجابه بحزن: نعم أنا هو، لكن أين ابن أخي؟

طمأنه قائلًا: «هو بخير مع زوجتي، إنما «صفية» حاولت قتل نفسها، ولا علم لي بالسبب».

ذهب «يونس» مع سيارة الإسعاف ليطمئن عليها، لكن إصابتها خطيرة وفقدت الكثير من الدم، هكذا أخبره المسعفون، وصلوا إلى المشفى أخذوها مباشرة إلى غرفة العمليات، استمروا أكثر من ساعة بالداخل وخرج الطبيب يخبرهم أن حالتها ليست مستقرة، وعليهم أن يروها قبل أن تسوء أكثر، فقد تكون هذه آخر مرة يرونها فيها.

دخل «يونس» يطمئن عليها ويطمئنها أنها ستكون بخير، لكنها لم تكن ترى أو تسمع فهي في غيبوبة كاملة، ذرف الدمع حزنًا عليها، أخبرها أن أمه تنتظرها هي و «ريان» لتقيم معها بأسوان.

لمعت عيناه بالدمع وخرج من الغرفة ليلتقي بالطبيب يسأله عن وضعها الصحي، أخبره الطبيب أنها لم تحاول الانتحار بل هناك من طعنها مباشرة بجوار قلبها، وتركها لتنزف مدة طويلة، شخص عينيه حين سمع ما قاله الطبيب، شكره بعد الاطمئنان وذهب إلى بيت «منذر» كي يفهم ما حدث.

* * *

يترقب «كيرال» ما يقوله هذا الشخص، يخشى أن يصيب عائلته مكروه بسببه، خاصة أنه لا يعرفه ولا يدرى أهو إنسان أم لا، قال له:

– أريد منك أن تذهب إلى جبل جرزيم ووادي النعسان، هناك ستجد ما تبحث عنه كله، لا تخطئ المكان ولا اسمه كي لا تصاب بسوء، هناك ستعرف كل الإجابات التي تبحث عنها بروفيسور.

تحدث «كيرال» مشدوهًا فسأله: «لكنك طلبت مني بداية عدم الذهاب، لماذا تريدني أن أذهب الآن؟».

- أعلم أنك ستذهب، خاصة بعد الرسالة التي وصلت إليك الآن.

توجس في نفسه خيفة «كيرال» فقال: «أنا لم أفتح الرسالة، كيف علمت فحواها، أنت لست إنسان إذَنْ، أليس كذلك؟!».

- لا يهمك كثيرًا من أكون، إنما أنا أخبرتك الآن أين ستجد ما تبحث عنه من إجابات للأسئلة التي ما زالت بداخل عقلك، ورفيقيك في خطر هناك وأنت هنا وحدك، ستذهب لا محالة، ستجدني هناك حيث أخبرتك أن تذهب، انظر لهذا.

جعله يرى «أوس» و «منصور» كل واحد منهما في مكان ما ينتظرون مصيرهم المجهول، أحدهما يتحرك بحرية والآخر مقيد في كرسي، يبدو عليهما القلق، أراد أن يعرف منه مكانهما لكنه لم يعطه جوابًا، اختفى «رامون» فجأة من أمامه، وظل «كيرال» يتلفت حوله باحثًا عنه فلم يجده.

فتح الرسالة التي وصلته، وجدها من «أوس»، علم موقعه وقرر الذهاب إليه لإخراجه من هناك، وقبل أن يفعل أي شيء اتصل على «غسان» طالبًا منه الذهاب معه من أجل «أوس» و«صفية»، لم يكن يعلم بعد أن «منصور» هناك أيضًا حتى اتصل به أخيه ليخبره بما حدث منذ البداية.

جلس يفكر وحده، كان الاتفاق أن نذهب معًا، كيف ذهب كل منهم وحده، لماذا لم يخبرني أحد بسفره ألم نكن فريق معًا؟!

ظهر أمامه ما كان يفكر فيه قبل ظهور «رامون»، فرك عينيه وهو يبتسم قائلًا: «تأتي على غفلة، ولا تكون إلا وحدك يا شيخ».

ابتسم له وهو يمسك بلحيته البيضاء مردفًا: «هذا لأنك تفكر بي، أنني بداخل عقلك طول الوقت، لذا أبدو لك حين يتخيلني عقلك، هذا ما أظنه».

– أظن أن التاريخ لا يريد أن يخرجك من رأسي لشدة الأحداث الجارية، ولأنني أحب أن أراك وأقرأ الكثير عن مسيرتك.

– التاريخ لن يستطيعوا محوه إذا كان هناك أشخاص مثلك، الآن هم يلعبون على طمس الهوية، والأحداث الحالية التي أخبرتني بها أثبتت أنهم لم يمحوها وما زال هناك من يحمل هَمَّ الأقصى.

– كيف كانت سنوات المعتقل بالنسبة إليك؟ هل كانوا يعذبونك؟

تنهد طيف «أحمد ياسين» بابتسامة خفيفة:

– أول حبس لي دام مدة شهر في مصر 1954م لأنهم ظنوا أنني تابع لتنظيم الإخوان المسلمين، لكن هذه الفترة تركت في أثرًا مهم، لقد عمقت في نفسي كراهية الظلم وأكدت فترة الاعتقال أن شرعية أي سلطة تقوم على العدل وإيمانها بحق الإنسان في الحياة بحرية.

وفي بلدي خاف اليهود لما ذاع صيتي، اتهمت بتشكيل تنظيم عسكري والتحريض على إزالة الدولة العبرية، أصدرت المحكمة حكمًا بالسجن لمدة 13 عام في 1982، لكنني خرجت في عملية تبادل الأسرى.

بعد ذلك في عام 1991م زادت العمليات ضد الاحتلال فأصدروا حكمًا مدى الحياة وخرجت أيضًا في عملية تبادل لعميلين حاولا قتل خالد مشعل في عمان، وتم إرسالي إلى الأردن بعد مكوثي في السجن ثمانية أعوام ونصف.

أتعلم يا سيد «كيرال»، في السجون يعذبوننا بالجوع والضرب وإذا مرضنا لا نُعالج، وبرغم هذا كله هم المسجونين وليس نحن، لقد وُلدنا أحرار شامخين، أذكر أنني عُزلت، ذقت طعم الموت وحُرمت الزيارات طيلة خمس سنوات في سجن هداريم بشروط قاسية جدًّا في قبو بلغت درجة حرارته في الصيف ٤٥ درجة، فيما ساد برد مرعب في الشتاء كانوا يمتنعون عن تنظيف القبو.

لم يتمالك «كيرال» نفسه فاغرورقت عيناه بالدموع فوضع يده على وجهه يكفكف دمعه، وما إن أزاحها حتى اختفى طيفه من جديد، فتح مفكرته ليبدأ القراءة مرة أخرى، حتى يخلد إلى النوم.

* * *

شعاع ضوء خافت يتخلل المكان، بدأ الظلام يتلاشى شيئًا فشيئًا، رأى شاب أمامه ملثم، حاول رفع عينيه إليه لكنه لم يستطع فتحها لشدة الضوء الساقط عليه، سأله الشاب:

– من أنت وما اسمك؟

أجابه «منصور» بصوت خافت: «أنا من الجزائر، جئت إلى هنا للمساعدة».

لم يصدقه الملثم لأن أوراق هويته لا تثبت صدقه، فقال: «كتب هنا اسمك «موسى» وأنك يهودي».

أجابه لاهثًا: «صدقني اسمي «منصور» وهذه الهوية مزيفة لأستطيع دخول البلد فقط».

– سنتأكد مما تقول أولًا، الآن سأفك قيدك لتناول الطعام.

فكه الشاب ووضع له بعض الطعام، ثم خرج وأغلق الباب مرة أخرى خلفه دون أن يغلق الضوء هذه المرة، بعد خروجه قال لرفاقه بالخارج: «أظنه لا يكذب، يبدو صادقًا».

أجابه أحدهم: «كل شيءٍ سيظهر، هو معنا الآن سنراقبه من كثب».

فتح أحدهم موقع التواصل الاجتماعي ليروا أخبار إخوانهم المرابطين فوجدوا خبر عن مخيم جباليا

اليوم 10 أكتوبر 2024

كتب الصحفي «أنس الشريف»

المواطنون في الشمال محاصرون في منازلهم، بلا ماء أو طعام أو دواء، يعانون من الجوع والعطش، وجثامين الشهداء متناثرة في الشوارع والمنازل وتحت الأنقاض.

الجميع تحت وابل النار، أطفال، نساء، رضع، شباب وعجائز.

القنابل تتساقط كالمطر والناس يهربون في كل لحظة من زاوية إلى أخرى، ومن بيت لآخر، ومن شارع لشارع، لا يعرفون إلى أين يذهبون.

ذرفت أعينهم الدمع، لا شيء يصف المشاهد التي يرونها أمام أعينهم وهم مكتوفي الأيدي، فقال أحدهم «صبرًا أهل غزة إن موعدكم الجنة».

* * *

صفوف جيش الاحتلال أصدرت أوامر تعبئة أخرى، الكل هنا جندي لا أحد يمكنه الفرار ومن يرفض يعاقب بالحبس، سكان الشمال في خطر محدق، هناك من يحاول مساعدة المقاومة الفلسطينية، عليهم أن يستمروا في محاربة حزب الله، صرخ أحد الجنود:

لا أريد العودة إلى الحرب، إننا نموت كل لحظة هناك، أوقفوا هذه الحرب رجاءً، أنتم لا تأبهون بنا، كل ما يهمكم مواقعكم السياسية فقط، ما النتائج التي أجرتها الحرب؟ جعلنا مدينة غزة ركامًا، قتلناهم شر قتلة، لكن أين نحن من كل هذا؟

قبضوا عليه وأودعوه في غرفة معزولة حتى يتم عرضه على طبيب نفسي، وضرب الواقفين كفًا بكف يخبرون بعضهم البعض أنه لا يهتم بإقامة الدولة لأنه أشكيناز، أردف آخر وكذلك الحريديم لا يهتمون بل وبعضهم سافر خارج البلاد في بداية الحرب ولن يعود، لا أحد يهتم بإقامة دولتنا إلا المخلصون أمثالنا، يقولون هذا أمام المسؤولين لكن حقيقة الأمر أنهم خائفين ينتظرون موتهم، يعلمون يقينًا أنهم ذاهبون إلى الموت بأقدامهم.

طلب منهم قائدهم القيام بعملية برية في شمال إسرائيل للتخلص من الجماعة الإرهابية هناك وإعادة سكان الشمال إلى منازلهم، ذهبوا فلم يتركوا

حجرًا إلا وتم هدمه، كذا مواقع السلاح والمنازل بعد نجاحهم في اغتيال قائدين لحزب الله في أسبوع واحد، وعدهم بمكافأة كبيرة إذا استمروا في الحرب لأنها تشتد وهي بالنسبة إليهم حرب وجودية، إذا فشلوا تختفي إسرائيل إلى الأبد.

الفصل الثامن

جرزيم

أنا جرزيم، جبل يقع جنوبي مدينة نابلس في فلسطين، يرتفع 881 مترًا عن سطح البحر، ويطلق علي اسم جبل الطور أو جبل البركة، وأضم أشجارًا حرجية، وتسكن الطائفة السامرية على قمتي، والتي تعدُّ من الطوائف قليلة العدد في العالم، وهي طائفة اتخذت من التوراة كتابًا مقدسًا، الخمسة أسفار الأولى أي العهد القديم فقط، أنا بالنسبة إلى هذه الطائفة القبلة لصلاتهم.

الصباح أمام البسفور لا يشبه أي صباح آخر، زرقة المياه والطيور المحلقة فوقه تُذهب العقول من جمالها، حجز تذكرة سفره وأخبر ابنته أن عليه الذهاب، سيلتقي «غسان» في مطار فلسطين بحسب الاتفاق بينهما، ودعته «عائشة» وسألته عن «أوس» هل سيكون معه، أخبرها أنه سبقه إلى هناك مع «منصور» لكنه لم يقل إنه لا يعرف مكانهما، احتضنت أبيها قبل أن يدخل إلى زوجته وأمه ليودعهما وطلبت منه أن ينتبه على نفسه.

فتح باب الغرفة وجدها ما زالت في فراشها مُعلق لها محلول تغذية آخر، قَبَل رأسها وكذا أمه وطلب منهما أن يهتما ببعضهما البعض ووعدهما ألا يتأخر في هذه الرحلة، أمسكت أمه يده تسأله: «هل ستعود الفتاة؟».ربت على يدها قائلًا: «لقد وجدناها، وذهب أخو زوجها لإحضارها وطفلها، لا تشغلي بالك هي بخير وطفلها».

حمدت ربها على هذا، ودعت لزوجته بالشفاء وأن يجمع شمل العائلة على خير، ودعها خارجًا من الغرفة إلى مكان لم يذهب إليه يومًا ودخوله ليس سهلًا، التفت ليلقي نظرة عليهن مبتسمًا، أغلق الباب وبدأ يسير في الطرقة البيضاء التي كانت طويلة على غير العادة، لمح أمام عينيه طيف «رامون» كأنه كان يراقب تصرفاته، أو أنه يخبره أنه سيكون معه حتى يذهب إلى حيث يريد، ما زال «كيرال» غير مطمئن له البته لكنه مضطر إلى الذهاب.

عاد إلى منزله وحمل حقيبته، وبعض الأغراض الهامة، طلب سيارة أجرة ليذهب إلى المطار، وجلس ينتظر وصولها في حديقة المنزل، فتح كتابًا إلكترونيًّا ليكمل السيرة الذاتية التي بدأ قراءتها.

22 مارس 2004

اغتيال الشيخ أحمد ياسين

كان عائدًا من صلاة الفجر، وقد خطط الجيش الإسرائيلي استهدافه عن طريق إطلاق مروحيات الجيش عدة صواريخ لاستهدافه في أثناء عودته من المسجد القريب من منزله في حي صبرا بغزة.

وأسفرت عملية الاغتيال عن مقتل تسعة من المارة الفلسطينيين وإصابة 15 شخصًا، من بينهم ابنا الشيخ ياسين، وقع الاغتيال بعد أسبوع تقريبًا من تفجيرات ميناء أشدود عام 2004.

أغلق كتابه ووضع يده على وجهه قائلًا: «تاريخهم حافل بالاغتيالات، هؤلاء لم يأتوا للسلام أبدًا».

* * *

صراخ وعويل، آهات متتالية تأتي من غرف المرضى، تتذمر الممرضات مما يسمعنه وما يجب عليهن أن يفعلنه لإبقاء هؤلاء المرضى بحالة صحية ونفسية جيدة، تتحدث إحداهن قائلة: «لا أعلم إلى متى يجب علينا الاهتمام بهم، علينا إرسالهم إلى عائلاتهم».

سمعتها رئيستهن في العمل فوبختها قائلة: «هذا واجبك تجاه دولتك، تتلقين راتبًا لأجل هذا العمل، لا أريد أن أسمع الشكاوى من المرضى كلما مررت».

أجابتها بتذمر أكبر: «لكن هؤلاء يتمادون في الطلبات، بعضهم يستطيع التحرك وصحته أفضل منا نحن ورغم هذا يخاف أن يتحرك من موضعه، حتى إنه يبول على نفسه».

احتدت عليها رئيسة التمريض: «لهذا تتلقين راتبك، الدولة بحاجة إلينا، أم تريدين أن نعود إلى الشتات من جديد؟!».

ردت أحد الممرضات بتهكم كبير: «شتات؟! عيشنا سابقًا في الشتات أفضل من هذه المرحلة، لم يكن يؤذينا أحد، ولما جئنا إلى هنا الكل آذانا والكل قتلنا وكرهنا».

وقعت كلماتها كالصاعقة عليهن يفكرون فيما قالت، كيف تقول إن الشتات أفضل، نحن الآن دولة، الشتات لم يكن في صالحنا، لقد تفرقنا وتوزعت عائلاتنا في أنحاء العالم ولم نكن لنجتمع لولا أننا احتللنا هذه الأرض، وطردنا أهلها منها ومن منازلهم وأراضيهم، سمعوا صراخ من

إحدى الغرف فهرولن سريعًا، وجدوا مريضًا يصدم رأسه بالأجهزة، الدماء تملأ وجهه وهو لا يتوقف عن ضرب نفسه في كل مكان بالغرفة حتى تناثرت دماؤه على كل شيء، يردد في أثناء هذا: «أخرجوهم من رأسي أرجوكم، أخرجوهم لا أستطيع النوم».

ذهبت إليه إحدى الممرضات باكية حاله فاحتضنته تطمئنه: «سنخرجهم لا تخاف، لكن أخبرني من هم؟».

لم يستطع فتح عينيه من سيل الدم وهو يشير إلى سريره قائلًا: «هؤلاء الأشخاص الجالسون هناك».

التفت من بالغرفة جميعهم فكان المكان خاليًا إلا من الدم، سفك دماء الأبرياء فطاردته لعنة دماؤهم، وهذه لا تمحى إلا بالدم.

حاولوا إنقاذه مما فعل بنفسه لكن النزيف برأسه لم يتوقف حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، النساء العاملات والممرضات تبكي فقالت إحداهن لرئيستهم: «هل علمتِ الآن لم الشتات كان أفضل لنا؟ هذه البلد لعنة علينا جميعًا».

* * *

يبحث في غرفته وفي المنزل لا يجد أخاه، لا أثر له، كيف خرج دون أن يراه، سأل زوجته وجدها لا تعرف شيئًا، حقيبته ما زالت هنا، لكن حقيبة ظهره غير موجودة، ظن أنه خرج يشتري شيئًا من أحد المحال، حاول أن يهدأ، اتصل على هاتفه لكنه لا يستطيع الوصول إليه، جلس ينتظره أمام المنزل،

بقي أكثر من ساعتين ولم يعد «أوس»، خائف أن يفقده، هو آخر ما تبقى له من أهله، أحضرت له زوجته شاي ليشربه، رفضه وهمَّ يتصل بالبروفيسور قائلًا: «لا بد أنه يعلم شيئًا».

أخرج هاتفه واتصل عبر الإنترنت بالبروفيسور «كيرال» بعد أن سَلم واطمئن على العائلة سأله عن أخيه، فقال: «كنت أنتظره لنسافر معًا، لكنه ذهب وحده إلى هناك، وأنا سألحق به بعد قليل».

تعجب «تاج» سائلًا: «لكنه لم يخرج أمامي وحقيبة سفره ما زالت هنا، لم يأخذ سوى حقيبة ظهره فقط».

حد «كيرال» رأسه سائلًا: «ألم يذهب إلى هناك بالطائرة؟».

أخبره «تاج» أنه كان يحضر أغراضه في غرفته وبعد أن أدخلت له زوجته الغداء لأنه يعود متأخرًا من عمله، لكنه اختفى دون تناول شيء من طعامه.

تعجب «كيرال» لما سمع لكنه أخبره أنه أرسل إليه رسالة يريد منه المساعدة لذا هو ذاهب الآن، حاول «تاج» معرفة مكان سفره فأخبره أنه سيرسل إليه كافة التفاصيل في رسالة لأن سيارة الأجرة التي ينتظرها وصلت وعليه الذهاب.

* * *

مكان يقال إنه يسكنه اثنان وسبعون قبيلة من قبائل الجان ويحمون فيها آثار قديمة، مغارة النعسان، تقع في خربة الدالية التي تُشرف على الأغوار الفلسطينية على بعد 12 كم غرب وادي الأردن.

من الكهوف المهمة مغارة النعسان ومغارة أبو سنجة، وهي كهوف عملاقة تروى عنها أساطير جَمَّة ولا أحد يعلم صحيحة أم لا إلا من دخلها واختبر الأمر بنفسه.

استيقظ «أوس» من نومته وجد نفسه في عتمة شديدة لا يرى أي شعاع ضوء، فقط عواء ذئاب قريب، أغمض عينيه محاولًا أن يدعو أن ينجيه ربه لكن تكميم فمه حال بينه وبين النطق بما يريد فأسرها في نفسه ودعا من لا منجا ولا ملجأ إلا إليه، سينجيه لا محالة فهو مجيب الدعاء ومن توكل على الله فهو حسبه.

حاول أن يتحرك لكنه لم يستطع، يبدو أن يديه مسلسلة بسلاسل حديدية كذا قدميه، استسلم للبقاء أما قلبه فقد كان ينبض بالدعاء ويلهج به صدره، حتى سمع صوتًا قريبًا، كأنه «تاج» يقرأ القرآن ويخبره أنه قادم إليه، تيار ساخن اقترب منه كأنه شيء يصدر حرارة عالية، لم يلمحه أحد إلا «تاج» الذي بدأ يلهج بالدعاء فاختفى كل شيء فجأة وأصبح وحيدًا في غياهب الصحراء.

ينتفض جسده احتجاجًا على رؤياه التي تزعج نومته، تفصد جبينه من العرق حتى نادى عاليًا «أوس» أخي.

أيقظته «ثريا» من نومته وهي تسمي الله، استيقظ وجد نفسه على الأريكة الموضوعة أمام المنزل نائمًا، مسحت جبينه، وسألته: «ماذا حدث؟ هل رأيت كابوس؟».

هز رأسه وهو يضع يده على قلبه ليهدأ، قائلًا: «يبدو أن أخي في مأزق، لكنني لا أعرف مكانه، لا أعلم ماذا أفعل».

ربتت على يده تسأله: «ماذا قال البروفيسور «كيرال» ألم يذهب إليه؟».

التفت إليها قائلًا: «عندما حدثته منذ ساعات أخبرني أنه ذاهب إلى المطار، سيتحدث إليَّ حينما يصل إلى وجهته».

قالت له مبتسمة: «أبشر لا تخاف لن يتركه ويأتي، أعرفه جيدًا، الآن أريد منك شيء اشتهيه، هل يمكنك أن تجلب لي توتًا بريًّا؟».

عقد حاجبيه مردفًا: «هذا ليس موسمه، ثم أول مرة تطلبين شيئًا كهذا، لماذا؟».

ابتسمت ولم تتفوه بكلمة فعلم ما ترمي إليه فسألها: «هل أنت حامل؟».

هزت رأسها في خجل فأمسك يدها مرددًا: «الحمد لله على رزقك يا رزاق، إن كانت بنت سأسميها باسم أمي».

قالت له: «كما تشاء اترك لك اختيار كل شيء، المهم الآن أريد توتًا بريًّا».

أدار وجهه متمتمًا: «لن تصمت حتى يأتي ما تطلبه، زوجة مصرية أصيلة سبحان الله».

نظرت إليه بجانب عينيها وهي تقوم من جواره قائلة: «لقد سمعتك يا «تاج» على راحتك، ستظهر في جسد الطفل توتة برية».

لم يهتم لما قالت وظل يتمتم: «قلتِ هذا في أول حمل ولم يحدث شيء حينما لم أجد الفراولة، لا أعلم هل هذا صحيح أم لا لكنها أفكار تتوارثها النساء، ويبدو أن هذا يحدث لأنها تشتهي هذه الأطعمة وتجعل الحمل حجة واهية».

ذهب خلفها يخبرها أنه سيحاول أن يجده ويشتري لها منه مهما كلفه الأمر، أعطته ابنه الذي استيقظ طالبة منه أن يهتم به حتى ترتاح هي قليلًا لأنها متعبة، أخذه وخرج ليجلس على الأريكة أمام المنزل مرة أخرى في انتظار مكالمة من «كيرال» ليطمئن.

* * *

جالس وسط الركام على حجر ويستند إلى آخر، مغمض العينين أمام الخيمة العلاجية، كان واقفًا دون راحة منذ وصوله، فطلب منه أحد الأطباء أن يرتاح قليلًا ليستطيع أن يُكمل عمله، جاء العم «مبارك» يحدثه: «هل تعبت أيها الطبيب؟».

فتح عينيه فرآه واقفًا أمامه مغبرًا كأنه كان تحت الركام، أجابه: «لا يا عم لست متعبًا، لكنني جلست لأستطيع إكمال العمل على أكمل وجه».

جلس العم بجواره قائلًا: «الكل يأتي ويتعب من أول ساعة، فما بالك بأهل المكان؟!».

نكس «عمر» رأسه خجلًا وهمَّ لينهض لكن العم أوقفه وقال: «أنت لم تعتد الأمر، هنا لا راحة إلا للشهيد، الكل مُتعب إلا هو».

جلس يقص عليه كيف فقد أهله تحت ركام منزله، وكل ليلة يطوف حول المنزل ينادي لعَلَّ أحدهم يجيبه بلا جدوى، صبره «عمر» وطمأنه بأنه سيجمعه الله بهم في الجنة بما صبروا، هز رأسه قائلًا: «لعلهم في مكان أفضل من هنا، والقرب من الله ليس مثل هذه الدنيا، إنه جوار الرحمن، لا شيء يضاهيه».

يبحث «رقيم» عن عمر فأخبره أحدهم أنه جالس في الخارج، ذهب إليه وجده يتحدث إلى الفراغ مرة أخرى، تنهد «رقيم» واقترب ليسمع لكن لا شيء يحدث، الصمت مطبق على المكان إلا من صوت «عمر»، ذهب إليه فربت على كتفه طالبًا منه الدخول إلى المشفى لأن هناك حالات ليس معهم طبيب، استأذن من العم وذهب مع رفيقه.

* * *

وسط أمها وجدتها تستمع وتتحدث عما يحدث في العالم، وكيف تبني وجهة نظر صحيحة عن الأمور، سألت عائشة باستنكار: «لماذا العالم كله ضد أهل فلسطين؟».

أجابت أمها: «ليس العالم ضدهم، هناك من يقف معهم، لكن الغالبية العظمى مع عدوهم لمصالح مشتركة بينهم».

التفتت إليها جدتها تسألها: «هل قرأتِ عن تاريخ فلسطين كما طلبت منك؟».

– نعم يا جدتي، قرأت ووجدت أنني لم أكن أعلم كل شيء عنهم، بل وهناك جزء حُجب عنا عنوة كي لا نعرف عنهم شيئًا.

– حسنًا، لماذا تتعجبين أنهم وحدهم في هذا الصراع الآن، أليس هذا ما حدث منذ فترة خصوصًا بعد بناء هذا الجدار العازل، وحصارهم داخل القطاع من وقتها؟

– أنا فقط أفكر بصوتٍ عالٍ يا جدتي، لماذا يحدث كل هذا؟

– لأن الأرض تتهيأ للحرب الأخيرة، حرب التحرير التي سيتغير العالم بعدها.

– هل سنرى الأقصى محررًا؟ منذ وعيت وهو محتل، ترى هل أراه محررًا قبل موتي؟!

– دوام الحال من المحال يا ابنتي، ووعد الله أنه يفتح في آخر الزمان لكن متى، العلم عند الله.

– آه يا جدتي لو أراه بعد الفتح، سأذهب إلى الصلاة فيه كما نذهب إلى بيت الله الحرام.

ابتسمت لها جدتها وقالت: «حلمنا جميعًا أن نصلي هناك يا عائش، لكن هذا الحلم له ضريبة كبيرة ستدفع قبله».

* * *

يسمع صوت مضيفة الطيران تخبرهم أن يضعوا أحزمة الأمان، لقد اقتربوا من مطار بن غوريون في تل أبيب، ألقى نظرة من زجاج الطائرة على سحر طبيعة فلسطين من الأعلى، لا عجب في أنهم لا يريدون تركها فجمالها يفوق الوصف، وضع حزام الأمان كذا «غسان» الذي رافقه من مطار إسطنبول إلى فلسطين.

نزلا بعد هبوط الطائرة وخروج الركاب أمامهم، يشعرون برهبة المكان، له وقع في قلبهما، يشعران أن الأرض ترحب بهما، اشمئزا من وجود جنود الاحتلال في كل مكان، لكن كانت الأرض تربت على قلبهما تخبرهما أنها

فرحة بقدومهما إليها، التفت «كيرال» إلى «غسان» يسأله: «هل تظن أن الأرض تشعر بنا؟».

ابتسم له مجيبًا: «نعم، أظن أنها تشعر بنا، أحيانًا أظن أن الأرض تحنو على الطيبين وتشعر بالخبيث وما أكثر الخبث هنا، فلا بد أنها شعرت بأننا من هؤلاء الطيبين».

أكد «كيرال» على كلامه بأن الخبث والشر هنا منتشر بعكس أي مكان آخر، وهذا واضحًا مما يروه بأعينهما الآن، مغتصب يتحكم فيمن يدخل ويخرج وصاحب أرض مغلوب على أمره.

خرجا من المطار إلى مكان وقوف سيارات الأجرة يبحثان عن واحدة توصلهما إلى وجهتهما التي يريدان، وجدوا سيارة طلب السائق فيها مبلغًا كبيرًا فوافق «كيرال» دون نقاش لأنه يريد أن ينقذ «أوس»، فور وصوله إلى أرض المطار وصلت إليه رسالة بمكان أوس الجديد، نظر إلى هاتفه متعجبًا كيف نُقل أوس من القلعة إلى الكهف ومتى تم نقله، لقد راسلني بالأمس أنه في القلعة، كيف حدث هذا؟ طلب من السائق الذهاب إلى العنوان الجديد بعد أن أعتذر له وأخبره أنه سيزيد أجرته، فمضى في طريقه ذاهبًا إلى مغارة النعسان حيث موقع قبائل الجان، الاثنان وسبعون قبيلة.

سأل «غسان» في دهشة عن تغيير وجهتهما فأخبره البروفيسور ما حدث، وأنه تم إرسال موقع آخر له ليذهب إليه بدلًا من الجبل، فقال له: «سيدي، كل الدلالات تقول إننا لا بد أن نذهب إلى الجبل أولًا، بسبب كلام «رامون» الذي أخبرتني عنه».

أدار «كيرال» وجهه، لا يعلم ما يفعل، من يصدق، هل عليه أن يصدق «رامون» أم يصدق من يراسله من هاتف «أوس»، زفر بضيق وهو يقول: «سأذهب إلى المغارة كما أرسل إليَّ».

التفت إليه «غسان» وأمسك يده بقوة وهو يخبره أنه سيذهب إلى جرزيم ولن يذهب حيث يريد هو، نظر إليه «كيرال» بتعجب وقبل أن يوبخه على فعلته وجد تغييرًا في وجهه فقال له: لست «غسان»، أنا «رامون» وستذهب حيث أمرتك.

دُهش «كيرال» لما يرى وعلم أنه لم يكن يتخيل «رامون» وإنما هو نفر من الجن ولم يكن مجرد طيف في ذاكرته لأجل شيء معين.

أمر «غسان» السائق الذهاب إلى جبل جرزيم فامتعض السائق فوبخه وأخبره أنه سيدفع له، فقال الرجل:

– كلما اقتربنا من الوجهة المحددة غيرتما الوجهة، ما هذا الذي تفعلونه أجننتم؟!

تحدث بغضب شديد قائلًا:

– اصمت، لا أريد أن أؤذيك، افعل ما تؤمر وستأخذ ما تريد.

توجس الرجل من طريقة كلامه فازدرد ريقه بصعوبة بالغة وبدأ يغير الوجهة كما يريد، فابتسم «رامون» وهو ما زال ممسكًا بيد «كيرال» الذي لا يعرف ماذا يريد هذا الشيء منه.

* * *

مكمم الفاه، تستحيل الرؤية في هذه العتمة الطاغية على المكان حوله، حاول أن يتحرك لكن قدميه مثبتتان في الأرض بشيءٍ ثقيل، يبدو أنها سلسلة حديدية كبيرة، حاول أن يصل إليها بيده لكن اكتشف أن يده مقيدة كذلك ولكن قيدها واسع قليلًا، ظل يدعو بقلبه «يا رب ليس لي سواك، نجني من هذا الظالم، أنت تعلم ما بي فخلصني منه برحمتك».

خُيِّل إليه أنه يرى «زين»، خاف ولم يتحدث، ظل يردد الدعاء في قلبه ونفسه إلى أن تكلم قائلًا: «هذا أنا «زين» الإنسان، لست هذا المسخ الذي يتشكل بي وقتما شاء، لا تخاف منه إنه يخاف ويذوب حينما يُذكر اسم الله، لا بأس عليك إن ذكرت الله، إنما كل البأس عليه».

ظل أوس ينظر إليه وهو يردد في نفسه الدعاء، اختفى طيفه من أمامه كما يختفي الآخر، لكن شتان بين هذا وذاك، إن هذا كان له قلب طيب، أما ذاك خبيث النفس كارهًا للبشر، بدأ شعاع صغير يتسلل إلى الغرفة الموضوع بها «أوس» حتى أضاءت كلها فعلم أنه ليس في القلعة، أراد أن يسأله أين أنا لكنه لم يستطع فأخبره الآخر أنا وأنت في مغارة النعسان، مكان تجمع قبائل الجان الحاميين للكنز الثمين الذي يخفونه.

فك قيد يده فأزال أوس رباطة فمه يسأله: «ماذا تريد مني؟ لم أؤذيك، لمَ تفعل هذا بي؟».

نظر إليه بغضب قائلًا: «تحديتني وأخذت مني صفية التي كانت عندي قبل مجيئك، كيف لم تفعل شيء؟».

ازداد غضب «أوس» واحتد عليه قائلًا: «إنها زوجة صديقي وأم طفله، ماذا تريد أنت منها؟ لمَ تؤذيها؟».

– لم أؤذِها، إنني أهتم بها منذ تركها زوجها، عندما كانت عندي في المقام، وأنت أخذتها مني، لن أرحمك ولن أدعك تهنأ أبدًا.

أعاد تكميم فاهه مرة أخرى وتركه في الظلام وحده، حاول «أوس» ألا يدعه، يكممه لكنه لم يستطع التغلب عليه.

جاءه طيف «زين» مرة أخرى يخبره أنه سيكون معه حتى يخرج من هنا لأن هذا المكان مليء بالجان ولا بد أن يخرج منه، حاول فك قيوده حتى يئس، رأى فئران قادمة من مكان قريب، شعر أن هناك مخرج من الناحية التي دخلوا منها، لكنه لم يستطع الذهاب إلى هناك؛ بسبب قيوده.

برد الشتاء يأكل أجساد الأطفال في الخيام، الدفء أصبح شيء خيالي هنا لا يجدونه إلا في أحلامهم البسيطة، كقطعة الخبز التي باتت لا تُرى نظرًا لارتفاع أسعار الطحين في القطاع، العالم أصيب بالعمى ولم يعد أحد يعبأ بما يحدث لنا ها هنا كأننا فئران تجارب، أو حيوانات لا قيمة لها، وما دام ليس للعالم مصالح معنا فلن يتكلم عنا أحد، فالمصلحة الكبرى لهم مع المحتل وليست معنا نحن أصحاب الأرض.

يكتب كلماته كلما سنحت له الفرصة في ظل الأوضاع القاسية التي يمر بها القطاع المحاصر، ينظر إلى الأطفال والناس في الخيام الممزقة، تعرفهم أمطار الشتاء الغزيرة من جميع الجهات، كلما حاولوا الاحتماء من ماء المطر دخل

من جانب آخر حتى تصبح الأرض أسفلهم مبتلة بالكامل فلا يستطيعون الجلوس أو القيام، لا مأوى لهم سوى الخيام والأرض والمباني المحطمة المحيطة بهم، رائحة الموتى تفوح مع مرور تيار هواء خفيف كان أو قوي، إن جاءت عاصفة تخلع الخيام وتمزقها أكثر مما كانت.

هنا غزة حيث لا شيء يحمي أُناسها إلا الله ﷻ، غذاؤهم القرآن والتسبيح والتهليل، غطاؤهم السماء، يتلحفون بها وينظرون إلى ربهم يدعونه رغبًا ورهبًا ليغيثهم، أناس لا يأكلون الخبز منذ

أكثر من عام، يأكلون وجبة واحدة في اليوم لا تكفي لإشباع بطن طفل صغير، يموتون جوعًا ولا يخبرون أحدًا أنهم يحتاجون، لهم ولنا الله هو وكيلنا.

الفصل التاسع

القيامة

دوام الحال من المحال، ومن لديه يقين صادق بالله يعلم أن التحرير آتٍ لا محالة، لكن التوقيت وحده يعلمه رب البرية، الآن التاريخ يُدوَّن وعلينا محاولة كتابة القصة الحقيقية لهذه الأرض.

تسير في الشوارع هائمة على وجها لا تدري أي الاتجاهات صحيح فكل يشبه بعضه بعضًا، ركام يملأ الطرقات، صراخٌ وعويل صداه يخلع القلوب، اقتربت من مكان تشعر أنها تعرفه لا يمكن أن يخطئه قلبها، خطت خطوة ناحية المبنى الذي تمنت أن تراه يومًا بعينيها وتطأه بقدميها، ذرفت دمعة ألهبت وجهها، صرخت كما يصرخ من فقد روحه أمام عينيه، الكل هنا يبكي بصمت إلا القليل لم يستطيعوا أن يصمتوا بل أبت أصواتهم إلا أن تصرخ على ما تشاهده عيونهم ويرونه وهم مكبلين لا يقدرون على فعل شيء.

وقفت أعلى بقايا، تصرخ لتتوقف الآلات عن الهدم، لا أحد يسمعها ولا يراها كأنها شبح أو روح هائمة، تنزف وتئن على أولى القبلتين الذي يُهدم والناس مكبلين رجال ونساء ومن يحاول الحراك يقتل فورًا، هؤلاء هم دعاة السلام الذين يلاقون الدعم من العالم أجمع، لا يعرفون سوى الإرهاب، لا يعلمون للسلام لغة سوى الدم، من أراد السلام يُقتل، من يتحدث يُقتل ويسلب كل شيءٍ يخصه.

بعد انتهائهم من الهدم تركوهم وذهبوا، جرت خلف من جرى ليحاول أن يلحق شيئًا أو يصلحه، لكن لم يبق شيء على حاله، المكان كله عبارة عن بقايا القدس الشريف.

لم يكن يومًا هدفهم الأرض بل الإبادة والتخلص من كل شخص ينتمي إلى هذه الأرض، أرادوا محو تاريخ شعب بأكمله وطمسوا الحقائق، وما زال العالم يعرف أنه لا يحق لهم شبر من هذه الأرض.

في أثناء سيرها بينهم وهم يصرخون، وقفت تحدثهم لكن ما زالت لا تُرى، حاولت أن تكتب كلمة على حائط لكن أصابتها قذيفة قادمة نحوها فسقطت وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة وتردد الشهادتين.

استيقظت تصرخ بشهقة عالية، سمعتها جدتها فجاءت إليها تعطيها بعض الماء وتمسد رأسها قائلة: «ما بك يا عائش؟».

صدرها يعلو ويهبط، ارتشفت بعض الماء والدموع تنساب من عينيها قائلة: «كابوس يا جدتي إنه كابوس».

احتضنتها جدتها لتشعرها بالأمان، ثم سألتها: «ماذا رأيتِ يا حبيبتي؟».

لمعت عينيها الرماديتين بالدمع قائلة: «رأيت الأقصى يُهدم، ولا أحد يوقفهم، وقفت لقدماء على الركام وأنا أبكي يا جدتي والنساء تصرخ».

ربتت على ظهرها تطمئنها أن هذا حُلم مزعج وليس عليها أن تهتم بمثله، وقالت لها: «هل تعلمين أن من علامات الساعة الصغرى: موته عليه الصلاة والسلام، فعن عوف بن مالك ﷺ، قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة

تبوك وهو في قبة من أدم – جلد –، فقال: (اعدد ستًّا بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا) [رواه البخاري].

لقد فُتح مرتين، وإن هُدم يومًا سيكون هذا بقدر الله هو خير حافظ يا ابنتي».

تستمع إلى جدتها محاولة أن تهدئ من روعها، لكن قلبها ما زالت ضرباته متسارعة خوفًا مما رأته.

* * *

وصل «كيرال» إلى جرزيم كما طُلب منه، نزل من السيارة مع «رامون» الذي يتحكم برفيقه، يفكر كيف يمكنه الذهاب إلى «أوس» والابتعاد عن هذا الشيء لكنه لا يعلم، نظر إليه «غسان،» يخبره أنه يعرف فيما يفكر الآن، وسيأخذه لإنقاذ من يريد لكن بعد أن يتمم الأمر الذي يريده منه أولًا، وقال:

– أتعلم بروفيسور، هذا الجبل له تاريخ عظيم عند أمتنا، إننا نعتقد أن التوراة نزلت هنا على جرزيم، وهو قبلة السامريين ومكان توجههم لإقامة العبادة، وهو الموضع الذي يحجون إليه وموضع تقديم القرابين إلى الله في عيد الفصح المقدس، والمكان الذي أراد نبي الله إبراهيم تقديم ابنه إسماعيل قربانًا إلى الله منه، لا تقلق لن أطلب منك شيئًا لا تستطيع فعله.

نظر إليه «كيرال» في حيرة من أمره، مردفًا: «ما الذي يمكنني تقديمه لك؟».

ابتسم ونظر إليه بجانب عينيه: «لا شيء سوى دم تركي مثلك، فقط بعض الدماء وينتهي كل شيء».

توجس «كيرال» خيفة، لا يمكنه التفكير، سيعلم ما يفكر به حتمًا، يعرف أنه خائف، لكن هل يريد تقديمه قربانًا لشيء ما أم ماذا سيفعل به؟

طقوس غريبة تحدث وخيالات تتحرك أمامه إلا واحد ثابت في المنتصف يرتدي وشاحًا أحمر وله أظافر طويلة، رأى جزء من يده، كانت ممتلئة بشعيرات سوداء، لم ير وجهه بعد لكنه غير مطمئن لما يحدث في هذا المساء الثقيل الذي لا ينتهي.

غفى البروفيسور في زاوية قريبة لأنه متعب جدًّا، في أثناء هذه الغفوة رأى ثعبانًا أسود ضخم يجري خلفه يريد أن يبتلعه، حاول أن يهرب يمينًا أو يسارًا لكن ما إن حُشر في الزاوية حتى فتح الثعبان فمه وانقض عليه، فانتفض من غفوته يتأكد من أنه لم يكن سوى كابوس مزعج.

* * *

فُتح الباب فدخل رجل طويل عريض المنكبين، لم ير منه شيئًا سوى عينين عسليتين لأنه ملثمًا، سأل «منصور»: «تحققنا من هويتك وعلمنا أنك لست يهوديًّا، لكن لمَ جئت إلى هنا».

رد عليه: «جئت للدفاع عن الأقصى معكم».

تعجب لما قال فسأله: «وما أدراك أننا ندافع عن الأقصى؟».

شعر «منصور» بريبة في قوله فرد مقتضبًا: «ومن أنتم إن لم تكونوا المقاومة؟».

ابتسم الملثم يسأله: «هل جئت من بلدك للانضمام إلى صفوف المقاومة؟ وتعترف بهذه السهولة لي!».

فكر «منصور» في أنه تسرع قليلًا فيما قال، لم يكن يجب عليه أن يعترف بهذه السهولة، ماذا إن لم يكن هذا الرجل من المقاومة؟ لا بد أنه صهيوني وسيزج به في السجن مدى الحياة لقدومه هنا دون أي إجراءات قانونية وبسبب اعترافه الذي أخبره به الآن.

حدثه الرجل قائلًا: «لا تخف لست يهوديًّا، ولكن لم يكن عليك أن تخبرني بهذه السهولة سبب مجيئك إلى هنا».

تنهد منصور وازدرد ريقه قائلًا: «إذَنْ أنتم من المقاومة، أليس كذلك؟!».

حك الرجل رأسه قائلًا: «نعم، لا بأس عليك الآن».

تهلل وجه «منصور» وهو يقول له: «هل ستجعلني ألتحق بالمقاومة؟».

نظر إليه مطولًا ثم قال: «نعم، لكن سيتم تدريبك أولًا».

كان متحمسًا أو حاقدًا على المحتل فقال: «أعطني سلاحًا لأقتل ولو واحدًا منهم، لعلي أرتاح مما أراه».

قال له: «اصبر يا أخي، إننا نصبر لنحصد الكثير».

صمت «منصور» وهو الذي قلبه يتقد نارًا بسبب ما يحدث لإخوانه، لا يقوى على النوم، ترك كل شيء ليأتي وينتصر لهم، وهم يطلبون منه الانتظار، لكنهم أعلم منه في هذا الشأن، عليه أن يستمع لهم.

* * *

يتفقد الجرحى والمصابين والقتلى، عيونه تدمع لما يرى، لم يعتد المشهد بعد، ما زال قلبه لا يتحمل ما يحدث، يدعو ربه أن يلهمه الصبر لينجو بهم، يساعدهم مما يحدث.

رأى العم «مبارك» قادم إليه في أثناء محاولته علاج طفل صغير، وضع العجوز يده يمسح على رأس الطفل محاولًا تهدئته، ينظر إليه «عمر» ويفكر كيف يمكنه أن يأتي لتهدئة طفل وهو فقد أهله أسفل ركام منزله حيث لم يخرج منهم أحد، سأله «عمر»: «كيف حالك يا عم؟».

رد عليه وهو يمسح الدم عن وجه الصغير: «بخير يا بني».

انتهى «عمر» من الطفل وبدأ في آخر، الحالات لا تتوقف، معظمها أطفال ونساء، كأن العدو لا يستهدف إلا هؤلاء كي لا يولد نسل جديد لأهل فلسطين، يريدون جعلهم مبتورين، بانتهاء اليوم كان عمر قد قام بمساعدة أكثر من خمسة وثلاثين طفلًا مصابًا، معظمهم إصابات خطيرة جدًّا، لكن هذا الأخير «خالد» لم يتمالك نفسه حين سأله الصغير: «هل ستنمو لي ذراع جديدة أيها الطبيب؟».

بكى حينها ولم يستطع الإجابة على سؤاله، فأعطاه حلوى ليأكلها ورحل يُكمل بكاءه في الخارج، قابل الفتاة التي عالجها «ديمه» اقتربت منه تسأله: «لِمَ تبكي الآن؟ علمتنا جدتي أن الرجال لا تبكي».

نظر إليها مبتسمًا وقال: «الرجال تبكي من القهر يا «ديمة»».

أعطته منديلًا تحمله وهي تقول: «هذا منديل أمي، سأعطيه لك لأنك طيب مثلها».

أخذه منها قائلًا: «إنه جميل لكن هذا ذكرى من والدتك».

نكست رأسها ولمعت عينيها قائلة: «كلما رأيت وجهي في المرآة رأيت أمي فأنا أشبهها».

أخرج عمر من حقيبته حلوى وشوكولاتة فأعطاها لها، تهللت لأنها أخذت حلوى تشتهيها منذ مدة طويلة، رأى هذا في عينيها فسألها: «كم عمرك يا «ديمة»؟».

ردت وفمها ممتلئ بالحلوى: «عندي أربعة عشر عامًا».

دُهش لأنه ظنها صغيرة جدًّا، هزيلة للغاية وزنها لا يتعدى الثلاثين، أهذا بسبب الجوع ونقص الغذاء طول فترة الحرب، أم هي رفيعة هكذا في الأصل، رأت الفتاة الحسرة في عينيه فقالت له: «قبل الحرب كنت بيضاء وجميلة وشعري جميل، لكن بالحرب فقدت كل جمالي».

ابتسم لها يخبرها أنها ما زالت جميلة وعينيها تذكره بأخته في تركيا، لأنها تحمل نفس لون العينين فقالت له: «لا بد أنني أجمل من أختك لأنها كبيرة والصغار أجمل من الكبار».

ضحكت بصوت جعله يبتسم حتى دمعت عيناه فأعطاها المزيد من الحلوى والتف الأطفال حوله ليأخذوا نصيبهم، رأى هذا «رقيم» من الداخل، فرح لأنه رأى الأطفال وصديقه سعداء يلعبون ويأكلون الحلوى.

* * *

ينظر «يونس» على زوجة أخيه من خارج غرفة الرعاية، يفكر فيما مرت به منذ تركها «زين» وسافر ليلقى حتفه، ولم ير طفله الذي وُلِد في غربة أخرى لم تختارها أمه، ماذا فعلت كي يحدث لها كل هذا؟ هل العرافة من تسببت في كل هذا؟ أم لكونها ذهبت إلى المقام الذي يظن الناس أن ساكنيه من الجن؟!

لم يعد يدري ما يحدث حقيقة أم خيال، فقط يتمنى زواله إلى الأبد ولا يؤذى أحد منهما من جديد.

جاء السيد «منذر» الذي يهتم بالطفل وأمه منذ أن وجدهما على الطريق ليطمئن عليها، رآه «يونس» فقام من مكانه يسأله بغضب:

– من طعن زوجة أخي؟ قال الطبيب أنها طُعنت ولم تحاول قتل نفسها كما قلت.

صُدم «منذر» لما قاله وعاد إلى الخلف حتى التصق بالجدار قائلًا: «كنت في العمل واتصلت بي زوجتي لتخبرني ما حدث، لا أعلم عما تتحدث صدقني، أنا اعتنيت بها منذ وجدتها وكانت على وشك الولادة، وأخذتها وطفلها في منزلي كما تعلم، فلمَ أفعل ذلك الآن؟».

خيم الصمت على الاثنين، كلاهما يفكر فيمن قد يفعل هذا بها، لم تؤذي أحد، وهي أيضًا في بلد غير بلدها، لا تعرف فيه أحد ولا تجرؤ على الخروج وحدها من المنزل، ذهب تفكير «منذر» إلى زوجته لكنه يعلم مدى حبها لها، فكر فيما إذا كان ما حكته له «صفية» عما تراه إذا خرجت من غرفتها حقيقة فسأل «يونس»: «هل «صفية» ترى جن كما أخبرتني؟».

نظر إليه «يونس» متسائلًا: «هل أخبرتك هذا؟ كانت ترى في مصر، لكن متى بدأت تراه هنا؟».

حك «منذر» ذقنه يتذكر متى أخبرته فقال له: «منذ أسبوعين أخبرتني أنها رأته وكان يخبرها أنه سيحرمها من طفلها، وطمأنتها أنها بأمان، لكنها كانت تخاف الخروج من المنزل، وذات يوم أخذت زوجتي الطفل وجلست به في الحديقة فجن جنون صفية حيث قالت إنها تراه واقفًا خلف زوجتي ويبتسم لها، ومنذ ذلك الحين لم تسمح لها أن تجلس به في الحديقة، وفي حادثة أخرى رأينا الطفل يبكي وهناك دماء متناثرة في فراشه، لكنه لم يكن به شيء، هنا أصبحت «صفية» تقرأ أورادها اليومية وبدأ وجهها يشحب وهزلت من قلة النوم والخوف على الطفل، كانت أحيانًا تصرخ في أثناء نومها قائلة: لن أتركه لك أبدًا».

هز «يونس» رأسه قائلًا: «كلنا نعلم أن الجن يستطيع الذهاب أينما أراد بسهولة، نسأل الله أن يحفظها و«ريان» من شروره، لكن هذا غريب كيف تعرفه جيدًا هكذا، لا بد أن كلام أمي حقيقي وأنا لم أصدقها».

* * *

نتناسى بعض الهموم بإرادتنا، ونحبو إلى الخيال هربًا من سجن الدنيا الذي نحيا به، نمرح ونلهو لئلا نهلك أنفسنا بالتفكير في الحزن الذي يخيم على نفوسنا وقلوبنا.

جالسة تطالع الأخبار لحظة بلحظة، تتنفس بصعوبة كلما رأت عددًا جيدًا من الشهداء والجرحى، ما زال الجُرح يؤلم نفوس الطيبين، ما زالت الدماء الطازجة رائحتها تغزو العالم كله، والعلم متصنع العمى، يرون أن المحتل له حق الدفاع عن نفسه، أما صاحب الأرض يجب أن تخضب أرضه بدمائه.

أغلقت صفحات الأخبار، حاولت الاتصال بأخيها لكنه لم يجب، أرسلت إليه رسالة عبر الإنترنت حتى يتصل بها حين يستطيع أن يفعل.

عادت إلى شرودها من جديد، تفكر فيما سيحدث في الرحلة التي لم تذهب إليها، كيف حال أبيها الآن؟ هل وصل أم ما زال في الطائرة؟

اتصلت على هاتفه لتطمئن لكنه لم يجب أيضًا، قلقت أكثر عليهما، الاثنان لا يجيبان عليها، تُرى هل هما مشغولان أم حدث لهما مكروه لذا لم يتمكنا من الرد؟! سيظل القلق شعلة متقدة في قلبها حتى يجيب كلاهما على رسائلها أو مكالماتها.

جلست تقرأ تلهي نفسها عن القلق، أرادت القراءة عن أهوال القيامة.

قال حذيفة بن أسيد الغفاري: «اطلع النبي علينا ونحن نتذاكر فقال: ما تذكرون؟ قالوا نذكر الساعة، قال: إنَّ السَّاعَةَ لا تَكُونُ حتَّى تَكُونَ عَشْرُ آيَاتٍ: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف في جزيرة العرب والدخان

والدجال ودابة الأرض ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها ونَارٌ تَخْرُجُ مِن قُعْرَةِ عَدَنٍ تَرْحَلُ النَّاسَ ونزول عيسى بن مريم».

واختلف العلماء في ترتيب علامات الساعة الكبرى العشر، وأبرز الاختلاف في زمن طلوع الشمس من مغربها.

أوقفت القراءة وقالت: «اللهم نجنا ولا تفتنا في ديننا».

وجلست تقرأ في الملاحم والفتن والعلامات الصغرى والكبرى كي تفهم ما يحدث كما اعتادت.

* * *

مجتمع متخبط ينهشون لحوم بعضهم البعض، لا يرحمون أحد ولو كان منهم، عائلات الأسرى في الشوارع يعترضون على بقاء ذويهم لدى المقاومة دون صفقة تبادل أو وقف إطلاق نار نهائيًا، ألم يعد يهم أن يعود ذويهم إلى الديار؟! أم أنهم يعرفون أنهم قتلوا لذا لا يحاولون إعادتهم، النساء تبكي أبناءها، والزوجات تنتحب على أزواجهن ولا حياة لمن تنادي، ما زالت حكومتهم عازمة على الانتصار الوهمي بدك منازل أهل الأرض وسحقهم أسفلها، هذه هي انتصاراتهم المحققة على أرض الواقع.

وقفت سيدة ومعها فتيات ترفع صوتها والكل يردد خلفها ما تقوله: «أعيدوا الأسرى الآن».

يكررون خلفها والأمن يفرق بينهم بخراطيم مياه قوية دون رحمة، يسحلوهم في الأرض ويقبضون عليهم بتهم عديدة، يميلون أياديهم إلى

الخلف ويضعونهم كالمجرمين في سيارات الشرطة وكل هذا لأنهم يطلبون حرية ذويهم فقط ليس لأنهم مجرمين، هنا حيث كانوا يدعون أن لهم حرية رأي وديمقراطية كل هذا اتضح أنه محض كذب وادعاء لا صحة له، مشتتون وبأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى، كتب الله عليهم شتات الأرض وشتات القلوب فلن يجتمعوا أبدًا.

* * *

بقايا أثرية، صورة وحجارة كبيرة خُيل إليه للحظة أنها مبنية كما هي، وقف «رامون» يتمتم تراتيل غريبة حتى رآها «كيرال» مباني كاملة أمام عينيه، ثم أخبره أن هذا معبد زيوس وهذه هي الكنيسة البيزنطية القديمة، أما هذا هو المقام الإسلامي مقام الشيخ غانم، وكما تعرف هناك تقع قرية لوزة.

هنا في جبل جرزيم لا يعيش سوى السامريين، نحن نتبع الديانة السامرية التي هي الدين الحقيقي لقدماء بني إسرائيل، ويعتبرون اليهودية الحديثة السائدة دين شديد الشبه بديانتهم، إلا أنه مُحرَّف، هنا أقدس بقاع الأرض، وليس جبل الهيكل في القدس.

سأله «كيرال» مقتضبًا: «ما زلت لا أعلم لم جلبتني إلى هنا!».

قال «رامون،»: «كنا نقدم القرابين هنا في هذه المنطقة، من الحيوانات وليس البشر لا تخاف».

نظر إليه «كيرال» باشمئزاز: «لا أخاف منك، أريد معرفة سبب وجودي هنا فقط».

أدار «رامون» ظهره لينظر إلى كل مناطق الجبل ويردد طلاسم سحرية، ما زال «كيرال» واقفًا لم يتحرك من مكانه لكن هناك من جاء في أثناء قراءة «رامون» كأنه فتح شيء لم يجب أن يُفتح أبدًا، تهافتت الأطياف حوله كأنها قادمة من فجوة غير مرئية، التفت إليه بعد أن انتهى قائلًا: «لقد جلبتك معي لأمر هام، ستشهد عودة حكم قبائل الجان، وهناك من يحبك وأخبرنا أنه يريد بعض دمك بروفيسور».

دُهش «كيرال» وحاول أن يتكلم لكنه لم يستطع فقد منعه «رامون» وأعوانه من الكلام، بل وأخذوا ساقه الصناعية كي لا يستطيع الحركة أيضًا.

الفصل العاشر

ريماتا

أنا بيت ريما، بلدة فلسطينية من قرى الضفة الغربية وأتبع محافظة رام الله والبيرة.

أشترك في مجلس بلدي مع قرية دير غسانة منذ عام 1966 تحت مسمى بلدية بني زيد الغربية، أنا من أقدم المجالس البلدية في فلسطين، يصلني طريق فرعي يربطني بالطريق الرئيسي طوله 3.7 كم، وأنا أحد أهم قرى بني زيد لموقعي المركزي، ويعود اسمي إلى الحقبة الكنعانية، حيث كان اسمي «ريماتا»، وكذلك يطلق علي «ريميث» في الحقبة الرومانية، وكلا الاسمين يعني الصخرة المرتفعة، حيث أنني أقع على قمة جبلين.

على أرضي شعب يستحق الحياة، هنا قدموا أرواحهم فداءً لنا جميعًا، أزالوا عنكم عار الخزي وترك الأرض لغير أهلها، في سجون الاحتلال يقبع أبنائي، منهم المهندس عبد الله البرغوثي قائد كتائب عز الدين القسام سابقًا في الضفة الغربية، أسير في السجون الإسرائيلية، يقضي حاليًا حكمًا من أعظم الأحكام في التاريخ، حُكم عليه بالسجن المؤبد 67 مرة، إضافة إلى خمسة آلاف ومائتي عام لمسؤوليته عن مقتل 67 إسرائيليًّا.

صخب وأصوات عالية إثر سقوط صاروخ على بعض الخيام، يهرول الجميع لإنقاذ حياة ساكنيها إن كانوا أحياء، يبحث «أمان الله» عن أخته في كل

مكان لا يجدها، دموع عينيه تسبقه هل سيفقد كل من يحبهم في هذه الحرب، ظل يبحث ثم تذكر أنها كانت خارج الخيمة تشتري طعام، اتصل على هاتفها فسمع صوت الهاتف قريب منه، تتبع الصوت حتى وصل إليه فوجدها مصابة بعيدًا عن الخيمة، حملها ذاهبًا بها إلى الخيمة العلاجية القريبة منه.

دخل وخلفه الكثير يحملون أطفالًا وشيوخًا ونساءً، الكل يسبح في دمائه، ذهب «عمر» إلى «أمان الله» يتفقد إصابته فأخبره أنه ليس مصاب إنما أخته، يرى «عمر» رأسه تنزف لكنه لا يريد إلا أن يطمئن على أخته، أعطاه «عمر» ضمادة ليوقف نزف جرحه حتى يطمئن على أخته، تفحصها أخبره أنها ستكون بخير، جرحها ليس عميق لكنها فقدت وعيها من الفزع، اطمأن «أمان» فسجد شكرًا لله وقَبَّل رأسها، جلس على الأرض يرى «عمر» وهو يداوي جُرحها ويستخرج الشظايا من ذراعها، ما إن انتهى حتى نهض «أمان» يمسد على رأسها، يرى «عمر» هذا المشهد وهو يفكر كلهم بكامل حجابهم، لم أر واحدة دون حجابها.

يشاهد كل شخص جوار مريضه يحنو عليه ويطمئنه، ما تحكيه وجوههم ونظراتهم أكثر ألمًا مما يشعرون به، هؤلاء نجوا من الموت بأعجوبة، كان الصاروخ وسطهم، مات من مات ونجا من نجا لكنه لا يعلم هل الناجي بخير أم لا، وإن كان جسده بخير فروحه ليست بخير، يرى ذلك من خلال عيونهم، الشاهد الوحيد على ما حدث حين سقط الصاروخ.

* * *

يرى أمامه المباني قائمة، يعلم يقينًا أنهم سحروا المكان قبل مجيئه مع «رامون»، يتلفت حوله مندهشًا لضخامتها، يرى «رامون» وأعوانه هذا ويقابلونه بابتسامة عريضة، سأل «كيرال»: «أليست قصة قبائل الجان الاثنين والسبعون أسطورة قديمة من وحي الخيال؟!».

رد عليه «رامون»: «بعض الأساطير حقيقة أيها البروفيسور، ظننتك علمت هذا حين كنت في كهف الجنون».

تعجب «كيرال» سائلًا: «تعلم أنني ذهبت إلى هناك؟!».

رفع «رامون» رأسه وأعاده إلى الخلف مضيق عينيه قائلًا: «أعلم عنك كل شيء منذ وُلدت حتى الآن».

تسارعت ضربات قلب «كيرال» حينما عرف أنه يعلم عنه كل هذا، ما زال يجهل لم يريدون دمه، يراقبه «رامون» بحذر شديد كلما تحرك إلى مكان، اقترب «رامون» منه قائلًا: «هل تريد أن ترى ابنك الآن؟».

دُهش «كيرال» لوهلة ثم قال: «هل يمكنني رؤيته الآن؟ كيف هذا؟ هو في...».

لم يكمل جملته فأكملها «رامون» بدلًا عنه قائلًا: «في قطاع غزة، يساعد في علاج الجرحى».

وضع «كيرال» يده على رأسه خوفًا مما قد يريه إياه الآن، ربت «رامون» على كتفه يطمئنه فتنهد ثم قال: «لا تقلق هو بخير، تعال انظر هنا».

ظهرت فجوة كبيرة أمامه رأى فيها ابنه واقفًا أمام خيمة العلاج، ملابسه ملطخة بالدماء، يحمل في يده كوب قهوة ورقي، يبدو أنه يستريح، عينيه مليئة بالدمع وهو ينظر إلى بعض الأطفال ينبشون في الأرض، بدا له أنهم يلعبون لكن لما اقترب منهم وجدهم خائفين فسألهم: «ماذا وجدتم في الحفرة؟».

نظر إلى الحفرة حيث هم واقفين مشدوهين، وجد عظامًا بشرية يبدو أنها حديثة الدفن، جثى على الأرض يحتضنهم وهم لا يصدرون أي صوت، فقط دموعهم تنهمر على وجوههم في صمت تام، أخذهم بعيدًا وأبلغ أحد الواقفين فجاء ومعه بعض الرجال وبدأوا ينبشون الأرض، وجدوا مقبرة جماعية لبعض الأفراد، قُتلوا ودُفنوا دون أن يشعر أحد بهم.

رأى «عمر» يصرخ وحده بعيدًا عن الأطفال والناس تواسيه، يظنونه فقد أحدًا له، ما إن عرفوا أنه طبيب متطوع شكروه وقالوا له: «هون على نفسك، إن الصبر جزاؤه الجنة».

نظر إليهم بعيون أكلها الدمع والحزن، يدعو لهم في نفسه أن يرحمهم وتنتهي هذه الحرب اللعينة، تركه الجميع إلا «أمان الله» لما رآه ذهب إليه يربت على كتفه دون أن يتحدث كأنه لم يجد ما يقوله مقابل وجعه.

يرى «كيرال» الوضع أمام عينيه، ما إن اقترب ليضع يده على الفجوة حتى اختفت كأن الحائط ابتلعها، قال له «رامون»: «هذا ما يحدث هناك، ويمكن أن تعتبرها نبذة يسيرة عما يحدث».

رد عليه «كيرال» سائلًا: «هل يمكنك أخذي إلى هناك لأراه وأطمئن عليه؟».

زفر بضيق مردفًا: «ليس الآن، لم ينتهِ ما أريدك لأجله بعد».

رد «كيرال» مقتضبًا: «لا أعلم لماذا أنا!».

أخبره أحد الواقفين أن كل شيء سيعرفه في موعده، فلا يسأل عن شيءٍ حُجب عنه لمصلحته حتى يبقى على قيد الحياة.

يتنفس بصعوبة بالغة كأنه جرى ألف متر، بالرغم من كونه ما زال داخل جسده الحقيقي لكنه لا يرى سوى الظلام، روحه تحاول الخروج من العتمة المحيطة بها، رغم وجوده بين أشخاص يرونه ويراهم إلا أنه لا يتحكم في جسده كي يطيعه، فمتى يتخلص من هذا الشيء الذي يتحكم به، يحاول جاهدًا نطق أي دعاء لكن هناك ما يُلجم لسانه فلا يقوى على النطق، بعد ما يئس قال: «الصبر يا «غسان» لا بد أن البروفيسور سيجد حلًا لك».

* * *

مكبل مكمم في نفق مظلم، يسمع أصوات همس وهمهمات قريبة منه، لا يرى شيء، عيونه مغطاة بقماشة سوداء رغم كونه في نفق، سمع اسمه يتكرر، صوت فتاة تكرره، هل يتخيل أن هناك من تناديه أم أنه في حُلم منذ أن كان يرتب لرحلته في منزله وما زال نائمًا، الهمس يزداد قربًا منه تقول: «أوس» استيقظ هيا نحن في انتظارك، لقد تأخرنا كثيرًا».

انتفض فزعًا من برودة هجمت على المكان، هناك أحد فتح الباب فدخلت رياح عاتية جعلت كرسيه يتحرك إلى الخلف، عاد سجانه من جديد، قال: «هل أنت جائع؟ لم تأكل منذ يومين، هل ستضرب عن الطعام؟».

لن يستطيع الإجابة لأنه ما زال مكمم الفاه، لم يفك قيوده بعد، اقترب منه أعطى لبصره الحرية في الرؤية بإزالة عصبة عينيه، ولفمه السبيل إلى الكلام لكنه أبى أن يجيبه، فسأله ثانية: «هل ستأكل أم لا؟». أراد «أوس» معرفة الوقت ليقضي صلاته لكن هذا المسخ لم يُجبه.

زفر بضيق شديد ووضع له طعام وماء أمامه بعد أن فك قيوده، ثم خرج تاركًا له شمعة مشتعلة حتى يأكل، اقترب «أوس» من الطعام، لم تطاوعه نفسه على أكله، رائحته بشعة، شرب الماء وأكل قطعة الخبز، ثم استند إلى الحائط بجسده وقَرَب منه الشمعة ليرى المكان الذي يجلس فيه، فإذا به في نفق به رسومات تبدو أثرية، ظل يضع الشمعة قرب الرسومات على الحائط ليفهم ما كُتب، لكن سرعان ما انطفأت الشمعة وعاد الظلام من جديد، ظل يتذكر الكلمة التي قرأها، برج القلعة أي قلعة يقصدها من كتب؟! حاول حتى تذكر تلك القلعة التي قرأ عنها «باب الخليل» إذَنْ هو في نفق ما أسفل برج القلعة.

كانت حقيبته إلى جواره لكن هاتفه مع سجانه، أخرج منها مصباحًا صغيرًا والخريطة العجيبة فعلم أنه حُبس بنفق أسفلها.

تقع قلعة باب الخليل أعلى مرتفع صخري في مدينة القدس، دُمرت وأعيد بناؤها أكثر من مرة، وجددّها الإمبراطور هيرودس الأدومي الكبير، شهدت القلعة بعض التوسعة والإضافات على يد الفرنجة الذين احتلوا القدس، بعد ذلك بعدما تمكن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون من طرد

الفرنجة وتحرير عكا في عام 1291م، تدهورت القلعة وأمر السلطان سليمان القانوني بترميمها في عام 1531م.

* * *

ما زالت نفسه محطمة، يعول على الصمت، فهو أفضل إجابة تأخذها من رجل مقهور، ترى قسمات وجهه جامدة، تعلم من خلالها مدى الألم الذي يشعر به، ومن يرافقه صامتًا، نظر «عمر» إليه يسأله: «ما اسمك يا أخي؟».

رفع «أمان» نظره إليه قائلًا: «أمان الله» هذا ما اسماه لي أبي الذي فقدته في هذه الحرب».

ربت «عمر» على كتفه محاولة منه لمواساته، كان يواسيه قبل قليل لأنه فُجع فيما رأى أمام عينيه، وهو فقد أغلى من لديه، أباه.. وقد تكون أخته التي رآها هي آخر من بقي له، لذا كان خائفًا، قال له: «جميل اسمك، جعل الله لك نصيبًا منه».

ابتسم أمان: «هو اسمي لكنني فقدت كل الأمان مع عائلتي، لا تهتم ما اسمك أنت؟».

وجم وجه «عمر» بُرهة، ثم قال: «أخوك عمر».

أردف «أمان»: «جميل، أنت تتحدث العربية ولكنتك مميزة، لكنك لست فلسطيني، من أي بلد أنت؟».

قال عمر: «ليتني كنت من هنا، جئت مع اللجنة الطبية التركية للمساعدة، أتمنى البقاء مدة لكن تحدد لنا وقت مسبق من قوات الاحتلال».

لم يندهش «أمان الله» لما قال فهؤلاء يتحكمون في كل شيء حتى البشر والحجر والشجر كل شيءٍ هنا يسيطرون عليه، متى يأكلون، من يقتلون، من يحيى، من يبيع الطعام، كل هذا مدروس بعناية شديدة، حتى من يخرج للعلاج يتحكمون فيه، تنهد «أمان» بثقل كبير قائلًا: «لا بأس عليك، لك الأجر يا أخي أبشر».

لمعت عيني «عمر» وهو يسأله: «هل تظن أن يغفر الله لي تقصيري في حقكم؟ هل يمكنك أن تشهد أمام الله أنني فعلت ما استطعت أن أفعل وجئت إلى هنا؟».

لم يتوقع «أمان» كلامه فذرفت عيناه رُغمًا عنه وقال: «أشهد أنني رأيتك يا أخي تساعد الجرحى وتُسعد الأطفال بتوزيع الحلوى الملونة، دعنا نصلي العصر ثم الجنازة يا أخي».

بكى «عمر» فبكى معه «أمان»، ربت كل منهما على كتف الآخر، وتبادلا أرقام الهواتف حتى يتمكنا من التواصل إن تفرقا بعد المهلة المقررة لبقاء اللجنة الطبية في القطاع، سأله «عمر»: «هل أنت من غزة أم من مدينة أخرى؟».

أعاد «أمان» رأسه إلى الخلف قائلًا: «كنا نسكن في قرية بيت ريما، لكننا انتقلنا قبل بناء الجدار العازل إلى غزة، ثم بقينا حتى الآن، فقدت عائلتي كلها والله وأنا صابر، بقيت «رزان» المصابة بالداخل، آخر فرد لدي».

يرتب «عمر» كلماته في عقله ولا يقوى على نطقها فسأله: «هل يمكنني معرفة كيف فقدت عائلتك أم أنني سأثقل عليك؟!».

تنهد كأنه يحمل ثقل العالم في قلبه وروحه قبل نفسه الذي يخرجه، وقال: «لا والله لا تثقل، أولًا فقدت أبي جوعًا، ثم أمي وأختي وأبناءها قصفًا، وإخوتي قتلًا على يد جنود الاحتلال، أثناء سيرهم على الطريق اصطادهم القناص كما يصطاد الطيور، وها هي في المشفى «رزان» الأخيرة التي بقيت، إن استطعت إخراجها من هنا حفاظًا عليها لفعلت».

وجده صابرًا شامخًا، يتحدث بثبات عجيب لكنه مقهور، وقهر الرجال ليس سهلًا، يأتي بصمت وشرود عجيب، قد لا يتحدث الرجل لكن ملامحه تحكي كل ما يريد قوله دون أن يتفوه به.

نهض «أمان» الذي له نصيبٌ من اسمه بعكس ما يظن، فهو آمن النفس صابرًا على ما ابتُلي به، ليطمئن على آخر من تبقى له، ثم يؤدي الصلاة مع الجماعة.

* * *

ليل ثقيل على منطقة سكن عائلة «منذر» ، صرخات وسط عتمة الليل وضحكات مختلطة بدموع لا يعلم أحد أسعيدة صاحبتها أم حزينة، رجل ملقى على الأرض دماؤه تسيل كأنما أحد ألقاه بحجر كبير على رأسه، زوجته تفترش الأرض بجواره تبكي تارة وتضحك تارة، تمسح على رأسه ووجهه، تقبل يده، تعتذر عمَّا حدث، صراخها ونحيبها يؤلم القلوب، يتلفت الناس فيما بينهم ولا أحد يتحرك.

على جانب آخر يجلس «يونس» على يديه الرضيع الذي يخصه، ينظر إليه وإلى «منذر» الغارق في دمه، كل ذنبه أنه حاول حماية هذا الطفل، من يفعل هذا بهم؟

يؤنب «يونس» نفسه أنه جاء به من المشفى ليطمئننا على زوجته والطفل، لو لم يأتيا لما حدث كل هذا، زوجته «عالية» كانت كأن بها مسًّا شيطانيًّا، عيناها حمراوان وتحمل سكين في يدها، أرادت ذبح الصغير الذي تحبه، حاول «منذر» منعها ومعه «يونس» لكنه سقط بطريقة ما من الشرفة كأن هناك قوة خفية دفعته من الأعلى ليلقى حتفه فور سقوطه، تهشمت رأسه وسبح في بحر من الدم، أخذ «يونس» الطفل من زوجته وهي هرولت على الدرج لترى زوجها أنيسها الذي لم يبقَ لها سواه، نادته لكنه لم يجبها هذه المرة، اختفى صوته إلى الأبد، صُدمت فبكت وضحكت في آنٍ واحد.

وصلت سيارة الإسعاف، حملته وأخذتها معه واستقل «يونس» سيارة أجرة خلفهما ومعه الرضيع، يفكر فيما يحدث منذ قدومه إلى هذه العائلة، من الذي يتحكم فيما يحدث؟ هل هناك من يريد قتل صفية كما أخبره منذر قبل وفاته؟ وضع يده على رأسه يكاد الصداع يفتك برأسه، لم يعد يعلم ماذا يفعل، لأول مرة في حياته يوضع في مثل هذه الظروف، سأل ربه أن يعينه وما خاب من طلب من الله المعونة، قَبل يد الصغير وظل يلهج بالدعاء ليخفف الله عنه ما يحيك في صدره ويؤرقه.

* * *

سماء ملبدة بالغيوم، لا أثر لضوء القمر أو الشمس فيها، فلا تدري أفي الصباح أنت أم في المساء، إلا من صوت طيور مبكرة تغريدها يصدح في السماء، صاروخ مثبت نحو زاوية ما، يقف ثلاثة أشخاص بجواره أحدهم يكتب عليه قبل أن يرسله إلى وجهته المحددة، وقع عليه وتم إرساله فسأل أحد الواقفين: «لماذا كتبت عليه اسمك؟».

فقال الرامي: «ليعرفوا أن من يدافع عن القضية ليس ابن الأرض فقط، إنما هويته الإسلامية ما تحركه».

قال له أحد المجاهدين: «سنحررها معًا وهذه هي شرارة البداية يا «عمر».

يبتسم بصوت في أثناء نومته على غير عادته منذ مجيئه، يوقظه «رقيم» ليطمئن ما به، قائلًا: «عمر استيقظ يا أخي، ماذا بك؟».

فتح «عمر» عينيه بنصف انفراجة قائلًا بصوت خفيف: «لِمَ أيقظتني، هل يجب علينا إخلاء المكان؟».

رد عليه يطمئنه: «لا لن نخلي المكان، إنما أطمئن عليك، كنت تتحدث بصوت وتبتسم وأنت نائم».

وبخه «عمر» لأنه أيقظه قائلًا: «سامحك الله يا رقيم، كنت في حُلم جميل».

لكزه «رقيم» في كتفه مردفًا: «وما أدراني أنك تحلم، قلقت عليك، لكن لعله خير».

أدار وجهه متمتمًا: «خير، كيف أعيد الحلم مرة أخرى الآن، هيا لننام يا «رقيم» لعلي أعيده».

* * *

بعد يوم طويل في تغطية الأخبار وإرسالها إلى القناة، يجلس «أمان» أمام الخيمة العلاجية على ضوء القمر، الصقيع يثلج جسده كله، لكن نار صدره ما زالت مستعرة، فتح مدونته على مواقع التواصل الاجتماعي ليُدوِّن من جديد.

من غزة هنا «أمان الله»

لم يتبقَّ لي سوى أخت واحدة جراء هذه الحرب التي طالت لتتجاوز أربعمائة يومًا، أظن أنها أطول حرب في التاريخ، لا أدري ولست بصدد البحث الآن أي حرب هي أطول، لكن بالنسبة لنا إنها أطول حرب مرت علينا.

قرأت اليوم وأنا جالس على أرض خيمة العلاج مقولة رائعة للمنفلوطي أظنكم ستعجبون بها مثلي، اقرؤوا معي:«ستقفون غدًا بين يدي الله يا ملوك الإسلام، وسيسألكم عن الإسلام الذي أضعتموه وهبطتم به من علياء مجده حتى ألصقتم أنفه بالرغام، وعن المسلمين الذين أسلمتموهم بأيديكم إلى أعدائهم ليعيشوا بينهم عيش البائسين المستضعفين، وعن مدن الإسلام وأمصاره التي اشتراها آباؤكم بدمائهم وأرواحهم ثم تركوها في أيديكم لتذودوا عنها، وتحملوا ذمارها، فلم تحركوا في شأنها ساكنًا حتى غلبكم

أعداؤكم عليها، فأصبحتم تعيشون فيها عيش الأذلاء، وتُطردون منها كما يُطرد الغرباء، فماذا يكون جوابكم إن سئلتم عن هذا كله غدًا؟».

هل تعلمون أنني أعلم ما سيفعلونه بغزة بعد الحرب، أظنهم

سيقومون بتحويلها إلى غابة مثل مدينة لوبيا التي طُمست وتم زراعة أشجار الصنوبر فوق أنقاضها بادعاء أنها كانت صحراء خالية، لكن ما حدث أنهم هجروا سكانها وقتلوا أبناءها ثم فعلوا هذا لإخفاء جرائمهم وليُقال أنهم حولوا الصحاري إلى غابات حية.

ما إن نشرها حتى نالت إعجاب الكثير وتفاعل معه العديد من الأشخاص، منهم من يسأله لمَ كان في خيمة العلاج، ومنهم من يسأل لماذا لم يعد يظهر على التلفاز، يطمئنون عليه لأنهم افتقدوه، فطمأنهم أنه بخير فقط إصابته طفيفة، وطلب منهم الدعاء لأخته بالشفاء ثم أغلق ليعود إلى الخيمة العلاجية من جديد ويبقى معها.

الفصل الحادي عشر

أرض الإله

دائمًا ما يرفق مصطلح الشتات في الحديث عن اليهود، فيقال إسرائيلي في الشتات، كُتب عليهم التيه فأرادوا أن يكتبوه على أهل فلسطين ليكونوا مشردين مشتتين مثلهم في شتى بقاع الأرض.

يطلقون على أورشليم أرض الإله، إذا فكرنا قليلًا سنجد أنهم رفضوا الامتثال لأوامره فكتب عليهم التيه والشتات مدى الحياة، فلا يذهبون إلى مكان إلا ولفظتهم الأرض قبل أن يلفظهم ساكنيها، فلا تجد دولة في العالم تتحمل وجودهم فيها لأنهم قومٌ فاسقون.

جالسة في الثامنة صباحًا، تقرأ كعادتها ناقمة على وجودها في هذه المشفى، مكانها ليس هنا، تريد الانضمام للحرب من أجل بقاء دولة إسرائيل، وجدت كتابًا لمؤرخ يهودي كانت تظن أنها تعرف كل شيء حتى بدأت تقرأ كتابه، كانت معلمة التاريخ اليهودي في مدرستها قد علمتها أن أرض الإله أورشليم لم تكن مهمة لدى العرب المسلمين يومًا ولم يأبهوا لها، لكن لما أرادها اليهود أصبحت قضيتهم وأرادوا أخذها منهم لأنها أرض الميعاد كما يدعون، هذا كل ما كانت تعلمه هذه الممرضة التي لا تريد رعاية الجنود الموجودين في المشفى هنا لأنهم لا يستحقون أن يطلق عليهم أبطال إسرائيل كما يقال، تقرأ عن دولة إسرائيل يقول المؤرخ آفي شلايم:

«أيُّ نوع من البلدان كانت إسرائيل؟ ثمة جواب واضح ألا وهو إنه بلد المهاجرين الجُدد، بلد يهود الشتات العالمي، وثقافات متباينة ولغات متعددة في نهاية الحرب عام 1948، كان عدد سكان الدولة الوليدة لا يتجاوز 650 ألف نسمة، من بينهم 150 ألفًا من العرب، لذا كان أولويةً قصوى بالنسبة إلى القادة، وبالنسبة لديڤيد بِن – غوريون أول رئيس وزراء، كانت مسألةَ وجود.

وبحلول منتصف عام 1951، تضاعفَ عدد السكان تقريبًا في أول الأمر، أقبل اليهود من أوروبا، بعضهم ناجون من المحرقة النازية، الهولوكوست تلقُّوا معاملةً تفضيلية على الأقل بقدر تعلَّق الأمر بالإسكان، مُنحوا منازلَ العرب الذين هربوا أو طُرِدوا إبَّان الحرب ولم يكن مسموحًا لهم بالعودة.

في تحدٍّ لقرار الأمم المتحدة المرقم 194 في كانون الأول / ديسمبر 1948م، رفضت إسرائيل منح حقِّ العودة أو التعويض لـ750 ألفَ لاجئ فلسطيني، إلا إنه بحلول عام 1950 لم يعد هنالك مزيدٌ من المنازل كي تُخصَّصَ».

أغلقت الكتاب تضرب كفًّا بكف تفكر فيما يقول هذا المؤرخ، لا يمكن أن يكون يهودي خائف على دولته، هذا خائن، وعزمت ألا تعود إلى إكمال كتابه.

* * *

نيران متأججة، أشخاص يهرولون ليطفئوها دون جدوى، نجا بعض الأشخاص، رأى الأهالي ذويهم يحترقون لكنهم لم يتمكنوا من إنقاذهم، صراخ الأمهات يتعالى كلما زادت النار، يد تظهر في خيمة كان يحاول النجاة بنفسه لكنه لم يستطع، أحرق الله حارقهم في نار جهنم.

هنا في غزة المعمي العالم عنها، يتحدث «أمان الله» إلى المذيع عبر القناة الفضائية التي يعمل بها.

«أكرم»: «صف لنا ما حدث أمان».

يقص «أمان» ما حدث قائلًا: «لقد فقد اليهود عقولهم، حرقوا الخيام فوق رؤوس ساكنيها الذين نزحوا من ديارهم وتركوا كل ما يملكون للمجيء إلى المربع الأخضر الذي تم تحديده من قبل جيش الاحتلال، اليوم قاموا بمحرقة الخيام، هؤلاء الذين يروون عن المحرقة التي لم يرها أحد، قاموا بمحرقة مثلها أمام مرأى ومسمع العالم أجمع، الكل صدق سرديتهم عن أرضهم التي يدعون أنها لهم، وسرديتهم عن المحرقة التي لم نرها، بل وقيل في التاريخ أنهم كانوا خلفها ليجبروا يهود العالم على الهجرة إلى فلسطين، صدقتموهم دون أن تروا المحرقة، أما الآن ترونا نحترق لكنكم عميان عنا، نحن لا ننتظر رحمة من أحد، نحن هنا ننتظر عدل الله ﷻ».

يستفسر منه «أكرم» عن كل ما يريد أن يوصله للناس عبر التلفاز، عيون أمان تحكي كل شيء، عيناه ساهرة، يخشى أن ينام فيفقد أخته كما فقد كل من يعرفه من عائلة وأصدقاء، شكره «أكرم» وأنهى معه اللقاء وأكمل مع مراسل آخر في القطاع.

* * *

بعيون ذابلة جالسة تتابع الأخبار على صفحات التواصل، تنتظر رسالة أو مكالمة من أبيها أو أخيها، قرأت نصًا أعجبها لفتاة من غزة تقول «رغد»:

- مَن نجا مِنا ومَن لَم ينجُ،
لا زِلنا هُنا، ولا زالت أنفاسنا العُظمى،
طِبنّا وطابت أقدامنا،
زُلت وخَسئت حَوائجكم،
وضاقت عليكم أذرعُكم
بِئس الجَار أنتم، وبِئس العَالم مَن فيه
نحنُّ العالم لا أحد سِوانا،
فَمن كَان غَزِّيًا قَد فاز.

تردد «عائشة» عقب قراءتها: «فَمن كَان غَزِّيًا قَد فاز، صدقتِ يا «رغد»».

فتحت هاتفها لتتصل على أبيها مرة أخرى فلم يفلح الاتصال كما بالأمس، أعادت إرسال رسالة ليعاود الاتصال بها وتطمئن، كذا راسلت أخيها ثم قامت لتصلي الفجر، وتوقظ جدتها للصلاة.

انتهت من الصلاة وعادت تفتح الكتب من جديد لتقرأ عن القضية الفلسطينية من منظور مختلف، يقول الكاتب هنا أنهم خدعوا اليهود لتهجيرهم إلى فلسطين:

«إن تاريخ رفض اليهودية الحاخامية التقليدية للصهيونية يبدأ مع تاريخ نشأة الصهيونية نفسها، إذ اتخذت «كافة» المنظمات اليهودية الرئيسية موقفًا مناوئًا أو غير مكترث للصهيونية منذ انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في عام

1897م، إذ أعلنت اللجنة التنفيذية لمجلس الحاخامات في ألمانيا عشية انعقاد المؤتمر، اعتراضها على الصهيونية على أساس أن فكرة الدولة تخالف عقيدة الخلاص اليهودية في الأدبيات الحاخامية وأفكار التلمود البابلي، التي ترى عدم جواز العودة إلى فلسطين لليهود بأعداد كبيرة قبل قدوم الماشيح، حيث قضى الإله عليهم بالشتات حتى ذلك الحين عقابًا على خطاياهم وذنوبهم».

الحل الداروينى السحري في بداية القرن العشرين تمثل في تصدير المشكلة (اليهودية) إلى الشرق بإقناع الفائض البشرى اليهودي بأن تهجيره إلى فلسطين ليس محاولة للتخلص منه وإنما هو عودة إلى أرض الميعاد إلى آخر هذه الترهات.

حقيقة الأمر أنهم كانوا يحاولون التخلص منهم لأنهم يرونهم خطرًا عظيمًا على بلادهم الأوروبية فأينما حل هؤلاء نشروا الفساد في الأرض.

* * *

صباح يوم جديد على «يونس» في الأردن، لا يدري ما يفعل بهذا الطفل وأمه؛ لكنه سيبقى معهما على أية حال، هرج ومرج أمام الرعاية الصحية، انخلع قلبه خشية أن يكون أصاب «صفية» مكروه.

اقترب من الغرفة واعترض إحدى الممرضات أثناء خروجها ليسألها عما يحدث فأخبرته أنهم يحاولون إنقاذها بالصدمات الكهربائية لكنها لا تستجيب، طلبت منه أن يدعو لها كي تنجو، لم يتمالك أعصابه فجلس على أقرب كرسي، تذكر «منذر» وهو يقول إنه اعتبرها ابنته التي فقدها، الآن بعد

أن ذهب للقاء ابنته، هي قريبة من الموت أو إنها تموت بالفعل، طلب من إحدى الممرضات الاعتناء بالطفل حتى يصلي ركعتين، فقام وتوضأ، صلى ودعا ربه قائلًا:

«يا من أخرجت يونس من بطن الحوت، انقذها لأجل طفلها».

ظل على حالته هذه حتى سمع أحدهم يقول الحمد لله ويكررها مرارًا، بعد أن أنهى صلاته وجدها قد استجابت وعاد قلبها للعمل من جديد، فحمد ربه وسجد شكرًا.

رأى «عالية» في حالة يرثى لها، ذهب إليها وأعطاها الصغير بعد أن أخذه من الممرضة، وأخبرها أنه لن يحرمها منه ولا من أمه، سيظل الاثنان هنا معها، أمسكت يد «ريان» تقبلها وتهدهده على حجرها، تخبره كم كان «منذر» يحبها وهي تسببت في موته بطريقة ما، لن تسامح نفسها، أخبرها «يونس» ما حدث كله وأنها لم تقترب منه بالأمس بل سقط وحده، كأن هناك من دفعه ليسقط، إنما هي لم تتحرك من مكانها إلا بعد رؤيته يقع من الشرفة، مسحت دمعها وهي ما زالت تُصبر نفسها، اطمأنت منه على «صفية» ثم دخلت إلى غرفة استأجرها «يونس» لها وأخذت معها «ريان»، أما هو ظل واقفًا يفكر فيما سيفعله، يجب أن يعود ليأخذ أمه، لن يستطيع تركها أو ترك «عالية» فهي لم يعد لها أحد، رفع نظره إلى السماء من نافذة المشفى قائلًا: «يا رب دبر أمري».

* * *

سماء حُجبت عنها الشمس من شرور الواقفين أسفلها، رغم كونهم في النهار، نجمة كبيرة رُسمت بالدم، أشخاص واقفون يرتدون أوشحة سوداء وحمراء، مقنعين وجوههم لا يظهر منها شيء.

يرى البروفيسور مكبل اليدين معصوب العينين، يحاول «غسان» أن ينطق شيئًا لكنه لا يتحكم في لسانه، نفسه التي بين جنبيه تأبى طاعة هذا الخبيث الذي تلبس به، يضغط على يده ليوقظ البروفيسور أو يحركه فيستيقظ من غفوته، كان يمسك بيده سيف كبير ويؤدي طقوس غريبة، يبدو أنه يريد أن تحكم قبائل الجان الأرض من جديد كما سمع «غسان»، أجبره على طعن أحد الواقفين بالسيف فاستحالت رؤية دماء ممن طعنه، علم «غسان» أنهم ليسوا من البشر، الآن فقط سيحاول أكثر أن ينجو بنفسه وينقذ «كيرال»، ظل يتذكر ما يمكنه قوله لكن ذاكرته تأبى أن تتذكر أي شيء كأنما طمست بطريقة ما، أو مُحيت الأدعية التي يعرفها كلها، لم يجد بد من أن يذكر اسم الله مجردًا فبدأ يقاوم نفسه ليقول يا الله ويلهج بها عاليًا، حاول مرارًا حتى نجح وعلا صوته وسط الحاضرين وهو يقول: «الله، بسم الله»، ويكرر حتى ذهب الجمع وولوا مدبرين، جرى على «كيرال» وجد يده بها جرح كبير، يبدو أنهم أخذوا من دمه ليقدموا قربان هنا، اقترب من وسط النجمة السداسية المرسومة على الأرض لينظر ماذا وضع فيه فإذا به طفل رضيع قد قتل وصُفي دمه، قُدم قربان لإبليس حتى يقبل تنفيذ ما يريدون منه.

فك قيد البروفيسور وساعده على النهوض وربط جُرحه لكنه كان متعبًا يفتح عينيه بصعوبة بالغة، حاولا الخروج من هذا المكان لكنه وجد «رامون» أمامه على بوابة أطلال القلعة القديمة التي يقيمون الطقوس عليها.

قال له: «لن تخرجا من هنا إلا بعد أن تتم الطقوس كاملة».

رد عليه «غسان» قائلًا: «لن نفعل شيئًا».

قال له «رامون»: «ستفعل كل ما أريده وزيادة، ألم تأتيا لإنقاذ «أوس»؟ هو في يد صديق لي، إن أردتما إنقاذه فعليكم اتباع أوامري كاملة».

لم يصدقه «غسان» فجعله يرى «أوس» في فجوة كبيرة الظلام يحيط به من كل جانب، كان يتحسس الحائط عقب انتهاء بطارية مصباحه اليدوي، يسير في النفق المظلم الذي حُبس بداخله محاولًا إيجاد مخرج له، لكن أنى له أن يجد شيئًا في هذا المكان الموحش، يردد أوس بصوت عالٍ: «لكل نفق مدخل ومخرج، اللهم نجني».

يراه «غسان» ولا يعلم مكانه، ولا ما يفعل له كي يعيده مرة أخرى، حتى عرض عليه «رامون» أنه سيخبرهم بمكانه إذا أكملوا مهمتهم، لكن قلبه لا يطاوعه، ازدرد ريقه بصعوبة وهو يستند إلى حائط بجوار البروفيسور، لم يعلم ما يفعل، فتح «كيرال» عينيه بثقل فرأى «رامون» بهيئة غير هيئة «غسان» ووجد صديقه جواره، فبدأ يقرأ القرآن ويسأل الله أن ينجيهما من هذا المكان، اختفى «رامون» لكنه قال قبل رحيله: «لم ينتهِ الأمر هنا بروفيسور، سنلتقي ثانية».

استند على «غسان» ليقف وبدآ يتحركان ليجدوا مخرجًا، ما إن خرجا حتى وجدا أنهما قد نُقلا إلى مكان آخر، سأل «غسان»: «لقد كنا في قلعة، كيف وصلنا إلى هنا بروفيسور؟».

نظر «كيرال» حوله ليتفقد المكان قائلًا: «لقد نقلنا «رامون» إلى مغارة النعسان حيث قبائل الجان التي ينتمي إليها ويريد أن يعيد لها مجدها من جديد».

تنهد «غسان» مردفًا: «كيف سنخرج من هنا الآن؟».

لم يكن «كيرال» يعرف طريقة إلا أن يتحركان نحو الطريق ويوقفا سيارة تنقلهما إلى فندق ما، حتى يتسنى لهما معرفة مكان «أوس».

* * *

جالس يقرأ في ساعات الصباح الأولى ورده من القرآن، لقد تغير كليًا منذ بداية الحرب، أغلق مصحفه وفتح هاتفه يقرأ عن المسجد الأقصى من كتاب قد حمله قبل مجيئه، بدأ يتصفح الكتاب:

«المسجد الأقصى بُني بعد المسجد الحرام بأربعين عامًا، وأن الذي بناه إما الملائكة وإما آدم عليه السلام وذريته.

المسجد الأقصى هو المنطقة المحاطة بالسور المستطيل الواقعة في جنوب شرق مدينة القدس المسورة والتي تعرف بالبلدة القديمة، وتبلغ مساحة المسجد قرابة الـ 144 دونمًا ويشمل قبة الصخرة والمسجد الأقصى حسب الصورة المرفقة، وعدة معالم أخرى يصل عددها إلى 200 معلم، يقع المسجد

الأقصى فوق هضبة صغيرة تسمى هضبة موريا، وتعتبر الصخرة هي أعلى نقطة في المسجد، وتقع في موقع القلب بالنسبة إلى المسجد الأقصى الشريف.

قاطع قراءته صوت قصف متواصل قريب، أيقظ «رقيم» وخرجا من الخيمة ليريا ما يحدث، وجدا الناس تهرول، هناك قتلى وأشلاء في كل مكان، جرحى من الأطفال يحملون إلى خيمة العلاج، أما «رقيم» سمع صوت صراخ قريب فتوجه ناحيته، إذا بطفلة محشورة بين الركام، نادى الناس ليساعدوه على إخراجها، وبعد أن تمكنوا من ذلك وجدوها مبتورة الأقدام، بكى كأنه لم ير هذا المشهد منذ مجيئه، احتضنها وحملها إلى المشفى الباقية في القطاع التي هي مجرد خيمة قد تقصف في أي لحظة، أعطاها لـ «عمر» وخرج يصرخ وحده بعيدًا عن المصابين.

ظل يتذكر ما رآه منذ مجيئه وما كان يشاهده، عزم على ألا يظل صامتًا، كانت هناك آلية من آليات العدو قادمة وبعض الجنود حولها، أوقفه أحدهم يطلب منه أن يسير أمامه ليفتشوا المشفى بحجة أن بها أشخاص من المقاومة، سار «رقيم» أمامه كما يريد وما إن اقترب حتى سرق سلاحه الآلي وقتله وظل يطلق على من حوله فسقطوا بين قتيل وجريح، لكن ما حدث بعد ذلك كان أبشع، أطلقت عليه الدبابة صاروخ فتلاشى «رقيم»، لم يعد هناك شخص اسمه «رقيم»، جاء ليساعد إخوانه، قلبه تعلق بهم، لم يكن همه إلا أن يحاول المساعدة، لكن ما يحدث يفوق تخيل العقول، لذا تحول إلى شخص يريد الانتقام، فقتل بعضهم واستراح هو من عذاب ضميره الذي لا يتوانى عن تأنيبه من قبل أن يأتي.

سمع رفاقه ما حدث فخرجوا من المشفى ليتفقدوه لكنهم لم يجدوا سوى أشلاء متناثرة له وبعضها لجنود العدو، لم يتفوه «عمر» بكلمة فقط دمعت عيناه وقال: «ربح البيع يا أخي، ربح البيع «رقيم»، صدقت الله فصدقك».

أخذ ما تبقى منه في كيس صغير ليقوم بدفنه في أرض غزة كبقية أبنائها، تذكر مقولة رفيقه «كلنا جنازات مؤجلة، لا أحد يعلم متى سنرحل، لكن حين يأتي موعدي أسأل الله أن أكون قد استراح ضميري وقلبي مما يؤرقني».

صلوا الجنازة على الشهداء ودفنوا جميعًا في مقبرة جماعية واحدة، لم يدفن «رقيم» بل دفن معه «عمر» وكل من له شهيد دفن هو الآخر، القهر هنا أصبح مألوفًا للصغير والكبير، يشعر به ويعيشه، يتضح هذا على قسمات وجوههم، حتى الأطفال مقهورون، ضاعت طفولتهم وأحلامهم وأصبحوا مجرد أرقام باقية ينتظرون موتهم ليضافوا إلى إنجازات العدو كالبقية.

بعد مرور أسبوعين كان قد اقترب موعد عودة اللجنة الطبية التي جاء معها «عمر» الذي لم يعد كما كان منذ أن نقص فريقه، قابله «أمان» ابتسم له «عمر» وكان معه أخته التي رآها لأول مرة تسير على أقدامها، معافاة إلا من آثار الحرب النفسية والجسدية، نحل جسدها وشحب وجهها، عيونها الزيتونية أصبحت غائرة لقلة الغذاء، لكنها مازالت تشبه ساعات السلام الأولى بعد عام من الحرب، اقترب منه «أمان» يسأله: «متى ستغادر؟ علمت أنكم أوشكتم على الرحيل».

التفت إليه «عمر» وهو يضمد جرح طفل صغير أمامه: «ربما بعد ثلاثة أيام أو أكثر، حتى تنتهي الإجراءات لنخرج».

لاحظ «عمر» ارتباك «أمان»، يبدو أنه يريد شيئًا ويخجل أن يخبره به، انتهى من خياطة جُرح الصغير، ونظر إليه يسأله: «ما بك يا أخي؟ تبدو خجولًا، ألك طلبٌ يمكنني أن أفعله لك؟!».

يتفصد جبين «أمان» بالعرق، مسحته له «رزان»، نظر إليها ثم قال: «أريدك أن تتزوج أختي وتأخذها معك بعيدًا عن الحرب».

تعجبت «رزان» من طلب أخيها كذا «عمر» لكنه لم يكن بقدر تعجبها هي، وبخت أخيها بعد أن سحبته إلى ركن بعيد، كيف أمكنه فعل هذا، لا تريد الخروج وتركه وحده، يراقب «عمر» الوضع وينتظر حتى ينتهيا، ذهب إليهما قائلًا: «إنه شرف عظيم أن أتزوج من بنات هذه الأرض «أمان»، أنا أقبل إلا إن لم تكن هي تقبله، أراها توبخك إن لم أكن على خطأ».

رمقته بنظرة غاضبة فازدرد ريقه قائلًا: «حسنًا، أظنها لا تقبل بي، «أمان» نحن إخوة وأصدقاء حتى إن لم أتزوجها لا تقلق».

جلس «أمان» يحدثها أنها آخر من تبقى له من عائلته ولا يريد أن يخسرها، يخبرها أن هذا الشاب جيد، يحاول بقدر استطاعته لم يتوانَ عن تقديم مساعدة لأحد هنا، رأيته كثيرًا كنت أراقبه من كثب، لم أكن لأطلب منه أن يتزوجك إن لم أكن قد تأكدت أنه شخص جيد، مسحت أخته دمعه الحار الذي سقط من عينيه رغمًا عنه، أخبرته أنها خائفة عليه، كيف يمكنها الخروج وهو ليس معها، طمأنها أنه سيلحق بها قريبًا، امتثلت لأمره ووافقت، فقال: «على بركة الله، سأذهب لجلب المأذون ليزوجكما».

خرج وفرحته لا تساع الكون، سيحمي أخته بإخراجها من هنا وهو مطمئن عليها.

فتحت هاتفها تنظر إلى الرسائل لم يرسل أحدهما شيئًا حتى الآن لكن فتحوا محادثتها، عاودت الإرسال من جديد إلى «عمر».

قالت : «أمي تسأل عليك، تريد الاطمئنان، أكذب يوميًا أنك تراسلني لكنك لم تفعل، قلبي غير مطمئن «عمر» من فضلك راسلني لأطمئن».

جاءته الرسالة في أثناء وقوفه في المشفى، لم يكن لديه عمل بل واقفًا حتى يأتيه «أمان الله»، فتح رسالتها منهكًا، قرأها وكتب لها: «سامحيني يا «عائش» هنا الوضع لا يسمح لي بالإرسال حتى، أنا بخير لكن الناس ليسوا بخير».

بكى وهو يتذكر رفيقه فقام بتسجيل صوتي لها لأنه لم يقوَ على الكتابة.

قال بصوت متحشرج: «مات رقيم، قصفوه في أثناء طلبهم إخلاء المشفى، لم يعد معي صديقي الآن، أخبرتك أنني بخير لكنني لست كذلك، حالي مثل من هنا، كلٌّ منا فقد جزءًا من روحه ولم نعد آمنين».

أعتذر منها ليعاود مساعدة الجرحى، مسح الدمع عن عينيه ليكمل مهامه، أما هي فلم تتمالك نفسها، صرخت وسقطت باكية، لم يعد هناك أمان على أحد، لا مشفى، لا بشر، لا حيوان ولا حجر، الكل هناك مستهدف.

سمعتها جدتها فانطلقت إليها، وجدتها جاثية على الأرض، علمت منها ما حدث لكنها لم تقل شيء، احتضنتها وبقيت صامتة تردد إنا لله وإنا إليه راجعون.

الفصل الثاني عشر

قمران

أنا سلسلة من الكهوف، بعضي طبيعي والآخر اصطناعي، أقع حول خربة قمران الأثري في صحراء يهودا بالضفة الغربية، وهو المكان الذي اكتشفت فيه مخطوطات البحر الميت.

اسمي مشتق من كلمة (قُمرة) أي لون البياض المائل إلى الخضرة نسبة إلى لون أرضي الكلسية البيضاء الضاربة للون الأخضر لما يتخللها من النباتات المفيدة للرعي، يُقال أن قمران مثنى قمر إذ يعكس القمر ضوؤه على سطح البحر الميت المجاور للمنطقة، فيظهر وجهان للقمر ومنهما جاءت كلمة قمران، ويُقال أيضًا إنه نسبة إلى إحدى القبائل التي كانت تحمل اسم قمر التي سكنت تلك المنطقة من البدو.

جالس في خيمته المهترئة إثر الشظايا والطلقات النارية، كان سقف الخيمة يشبه المصفاة، لكن خاطت أخته عليها قطعة بلاستيكية كي لا يتسرب ماء المطر إلى الداخل، لكن هذا لم يفلح لأنها تغرق من كل اتجاه إذا كان اليوم ممطرًا، فتح هاتفه يرى ما يحدث في العالم، هل ما زال أحد يذكرهم بعد مرور أكثر من أربعمائة يوم على الحرب؟

وجد أخبار أبهجته وأثلجت صدره، سوريا تتحرر، قوات المعارضة تدخل البلاد وتطهرها من قوات الطاغية، تهلل وقام يقفز إلى الأعلى قائلًا: «الله أكبر ولله الحمد العقبى للأقصى، مبارك عليهم الشباب».

التفت له «رزان» تسأله: «ماذا يحدث يا أمان؟».

فرحته واضحة في عينيه وتصرفاته وابتسامته الصافية، أخبرها أن سوريا تتحرر من الطغاة، يسقطون النظام الوحشي الذي يتحكم بهم، آن أوان سقوطه إلى الأبد، لم تشعر بما تفعل وصرخت هي الأخرى: «الله أكبر ولله الحمد، يا رب أرنا الأقصى محررًا».

احتضنها «أمان» وبشرها قائلًا: «إن هذا هو التمهيد يا حبيبتي، الله عز وجل يهيئ الأرض لأمر عظيم، علينا أن نستبشر خيرًا، لقد صبرنا كثيرًا، لعلنا نحصد ثمار الصبر غدًا».

ابتهجت فكبرت وهللت، لكنها وجمت لوهلة قائلة: «لكنني سأسافر مع «عمر» أنسيت؟!».

ابتسم لها: «لم أنسَ يا حبيبتي، لكنني لن أطمئن إلا إذا رحلت معه، هو شاب جيد، جلستِ معه مرتين منذ عقد القران ورأيتِ بنفسك أنه جيد».

صمتت فمسح على رأسها، وأخرج مفكرته يكتب فيها لحظات التاريخ الفارقة، لعل أحد يجدها ويروي الحكاية كما كانت.

مر اثنا عشر يومًا منذ 24 نوفمبر 2024

اليوم الثامن من ديسمبر 2024 سقوط نظام الأسد ودخول العاصمة دمشق

سيارات تطلق أبواق النصر، الحرية لها رائحة وطعم في شوارع سوريا، يهرول الناس فرحًا، يهللون أصبحنا أحرار، انتهى الظلم الذي كان يكتم أنفاسنا.

تم تحرير القابعين في السجون، بعضهم أمضى عمره كاملًا داخله لا يعلم ما يحدث خارج جدرانه، تعذيب وقمع ورائحة الموت تفوح بين عنابره، الناس كأنهم في حلم.

كيف ينام الشخص وبلده محرر من الظلم؟ هل سنشعر هذا الشعور يومًا؟

أتساءل ما هو شعورهم الآن؟ أنا هنا أكاد أطير من فرحتي لهم وأسأل الله أن يتمها لهم على خير، فرحتهم تسعدنا هم منا ونحن منهم والعقبى لنا.

كان يتابع «أمان» الأمر من كثب طيلة الأيام، يرى المدن تتحرر وجنود النظام الفاسدين يهربون، رأى النساء والرجال الخارجين من المعتقلات خاصة صيدنايا معقل العذاب كله، دموعه سبقته حينما رأى النساء والبنات يبكون غير مصدقين ما حدث، يقولون أين نذهب، فأخبرهم الرجل أن سوريا محررة بالكامل اذهبن أينما شئتم.

تجهز «رزان» نفسها للسفر مع زوجها رغمًا عنها، ترى أخيها سعيدًا فلا تريد أن تحزنه بما تشعر به من قلق، ستخرج مع شخص لا تعرفه وتعيش مع أشخاص لا تعرفهم كذلك، تراه صغيرًا على أن يصبح زوجًا، لمحها أخيها فسألها فيم تفكر، فأخبرته بما تسره في نفسها فقال لها: ليس صغير إنه أوشك على الثلاثة والعشرين عامًا، رأيت هويته، أعلم أنكِ تظنينه صغير لأنه ما زال طالبًا في الطب، لكن هذا لأنه درس الطب بعد أن انتهى من كلية العلوم، أنتِ ستكونين مع رجل أفخر به زوجًا لك، هل تظنين أني ملقي بك لأي أحد يا فتاة.

تنهدت واحتضنته كعادتها خوفًا من تركه، طلبت منه أن يعدها أنه سيكون بخير وسيلحق بها، ففعل لكنه لا يعرف هل سيتمكن من الإيفاء بهذا الوعد أم لا، قام بإيصالها إلى السيارة الخاصة بالبعثة الطبية وظل واقفًا حتى رحلت واختفت عن ناظريه وسط الحطام المتبقي من القطاع.

ما زالت تنظر إلى الخلف، ربت «عمر» على كتفها فانتفضت فقال لها: «لا تخافي، سيكون بخير إن شاء الله».

نظرت إلى مفتاح دارهم الذي أعطاه لها قبل أن ترحل فدمعت عينيها، أعطاها «عمر» منديل ورقي، ونظر من النافذة فوجد العم «مبارك» يشير إليه ليودعه، طلب من السائق الوقوف فنزل سلم عليه وطلب منه أن يدعو له، أعطاه العجوز مفتاح داره قبل أن يرحل لأنه لم يبقَ له أحد، عاد إلى السيارة وهو يحمل المفتاح في يده فسألته «رزان»: «مع من كنت تتحدث؟!».

التفت يشير إليه قائلًا: «هذا العم «مبارك» أراه منذ وصولي هنا، الآن أعطاني مفتاح داره لأنه يخشى ألا يحمله أحد».

ازدردت ريقها وشحب وجهها قائلة: «لكنك كنت تتحدث إلى الفراغ».

أعاد نظره إلى العم وجده ما زال في مكانه واقفًا، أخبرها أن تنظر جيدًا إنه واقفًا على ركام منزله، أخبرته أنه كان هناك عجوزًا يطعم الحيوانات هنا وقصف منزله في بداية العدوان كان اسمه «مبارك» وقد مات بعد قصف منزله بأيام، ابتلع «عمر» غصة في حلقه، فسألها: «إن كان ما تقولينه حقيقي من أعطاني المفتاح الآن؟».

لمعت عينيها بالدمع مرادفة: «لقد رأيناك تجلبه من الأرض ولم يعطيك إياه أحد».

خيم الصمت على من بالسيارة وهي تتحرك إلى حيث المكتب الذي يعطيهم إذن الخروج من معبر كرم أبو سالم، طلب منهم السائق أن يصمتوا حتى تنتهي الإجراءات، وبعد ذلك طلب السائق من قائد المكتب أن يتركهم يذهبوا إلى الصلاة في المسجد الأقصى فرفض وأرسل معهم سيارة حتى توصلهم إلى المطار مباشرة.

* * *

استيقظت «صفية» من غيبوبتها الطويلة أخيرًا، رأت أمامها «يونس» يحمل ابنها ويطمئنها أنها ستخرج وتعود إلى الديار فقالت بهمس: «العم «منذر» والخالة «عالية» أين هما؟».

نكس رأسه لا يعرف كيف يخبرها ما حدث فقال: «الخالة هنا، والعم لديه بعض الأعمال، سنخرج من هنا مباشرة إلى منزل جديد أخذته لك هنا في الأردن، وجدت عملًا وأحضرت أمي أيضًا إلى هنا».

دُهشت سائلة: «كل هذا حدث وأنا نائمة؟».

ابتسم لها يخبرها أن كل شيءٍ سيكون بخير، إن كانت هي بخير.

كتب لها الطبيب تصريحًا بالخروج بعدما فحصها جيدًا، نزلت معه إلى سيارة الأجرة ودخلوا المنزل معهما الصغير، كانت «عالية» تنتظرهم في حديقة المنزل مع أم زين، سلمت عليهم وأخذت «ريان» أعطته لجدته وهي تخبرها أنه ابن «زين»، لكنها لم تستطع أن تعقل فهي ما زالت تعاني من صدمتها التي عاشتها، مسح «يونس» على رأسها وقال: «يا أمي هذا حفيدك، ابن أخي».

اطمأنت له فقبلته على خده، توجه «يونس» إلى زوجة أخيه قائلًا: «لن نستطيع أن نعيش معًا في منزل واحد هكذا، أريد الزواج منكِ لأقوم بمساعدتك في تربية «ريان»».

طلبت منه أن تفكر في الأمر، وحتى يأتي العم «منذر» ستخبره بقرارها، لم يخبرها أحد منهما ما حدث، تركاها تذهب إلى غرفتها لتستريح حتى يتمكنوا من إخبارها ما حدث.

بعد يومين علمت بالأمر من وسائل التواصل الاجتماعي، وبخت «يونس» لأنه لم يخبرها بشيءٍ، فأخبرتها زوجته أنها هي من طلبت منه ألا يفعل، وهو ليس له ذنب، حددت «عالية» موعد زفافهما وطلبت ألا يعترض أحد منهما.

* * *

ما زال «أوس» صامدًا في مخبأه الذي حُبس فيه، سمع صوت فحيح أفعى قريب منه، لم يكترث لأنه لا يرى في الظلام، فُتح النفق المظلم فتسربت أشعة الشمس إليه، أغمض عينيه محاولًا أن يتحقق من الرؤية، وجد سجانه أمامه يقول له: «هيا تحرك، اخرج أمامي».

خرج أوس فإذا به في مكان ساحلي جميل كأنه قطعة من وحي الخيال، سأله أين هما فأخبره أنهما في كهوف قمران، طلب منه أن يتركه وهو لن يؤذيه، ابتسم له مجيبًا: «أنت ستؤذيني؟! من أنت يا «أوس»؟! إنسان ضعيف مهمل لا أحد يهتم بك ولا أحد يريدك، أخبرني أين أخيك؟».

أغمض عينيه محاولًا أن يتمالك أعصابه، قائلًا: «لن يأتي، أنا أستطيع حماية نفسي منك، أنت الضعيف وليس أنا».

ظلا يتبادلان اللكمات والكلمات، حتى سقط «أوس» وهو يقول: «لم أكن يومًا أتخيل أنني سأقاتل جنًّ في جسد بشري، هذا الذي تسكن في جسده ليس له ذنب سوى أنه ضعيف الإيمان بالله».

بدأ يقرأ «أوس» القرآن والأدعية التي علمها له أخيه قبل سفره خوفًا عليه مما قد يحدث له هناك، كان قلبه غير مطمئن، فتحت فجوة كبيرة في الهواء فسحبته إلى حيث لا يعلم أين هو، يحاول أن يرى أي شيءٍ هنا لكنه لا يستطيع التعرف على المكان فصرخ قائلًا: «والله لن أرحمك إن رأيتك ثانية، أين وضعني هذا الحقير؟».ابتسم وهو يقول: «أنا الذي لن أرحمك، لن أتركك إلا بعد أن يأتي أخيك لأحاسبه على فعلته تلك، الآن ستكون هنا

في أرض من أراضي الجان أمام عيني يا «أوس» لا تنتظر أن يساعدك أحد هنا دون إذن مني».

صحراء جرداء ألقاه فيها، لا يعلم لها أول أو آخر لم تكن معه سوى حقيبته التي على كتفه، جلس على الأرض يستعيذ بالله من سيد هذا الوادي، وبدأ بالسير حتى يجد طريقًا إلى المدينة، كيف سيخرج من هنا لا يعلم، لكنه يعول على إيمانه بأن الله لن يضيعه.

* * *

وصلت رسالة إلى «تاج الدين» وهو يلاعب طفليه كُتب فيها «أخوك لم يخرج سالمًا، ستجده معي حيث خُلق الرعب».

اشتد فزع «تاج» من الرسالة فاتصل على البروفيسور يخبره ما حدث، علم أن البروفيسور في مطار بن غوريون عائدًا إلى إسطنبول بعد هذه الرحلة التي أنهكته دون أن يحقق فيها أية أهداف إلا الصلاة في المسجد الأقصى ورؤيته عن قرب، أخبره أنه سيتواصل معه عندما يصل إلى إسطنبول ولا بد أن أوس سيجد طريقة ليتواصل معهم بها، وحتى هذا الوقت سيحاولون التوصل إلى موقعه، بعد أن أغلق معه «كيرال» جاءته رسالة فحواها: «أوس معي ولن أتركه، تعرفني من رحلتك الأولى، ستعرف كيف تصل إلي».

تنهد غسان والبروفيسور معًا قائلان: «ألم ينتهِ هذا الأمر؟!».

باغتهم من الخلف «عمر» قائلًا: «ما الذي سينتهي؟».سلما عليهما وعلى بقية الفريق وقدم له ابنه «رزان» قائلًا: «أبي، هذه زوجتي من القطاع، لقد تزوجت منذ ثلاثة أيام».

نظر «كيرال» مشدوهًا يفكر فيما سيحدث عندما تعلم أمه، ماذا فعل هذا الولد المُتَسَرِّعُ، تزوج بهذه السرعة، لكنه أعجب بزوجة ابنه وأجلسها جواره يتحدث إليها حتى يحين موعد الطائرة.

ركبوا الطائرة المتجهة إلى مطار إسطنبول الدولي، وبعد أربع ساعات ونصف تقريبًا وصلوا إلى أرض وطنهم، كانت تنتظرهم «عائشة» بعد أن أخبرها أبوها بموعد وصولهم، واقفة تحمل زهور التوليب التي تفضلها، لاح لها أخوها من بعيد؛ فهرولت عليه تحتضنه، وتداعب شعره، ترى «رزان» الأمر وهي تعض على أسنانها، وفي نفسها تقول :

– يبدو أنه يتعامل بحرية مع النساء، وهذا لا يبشر بالخير.

كذا احتضنت «عائشة» أبيها، وبعد أن ألقت السلام على الجميع، قدم لها أبيها «رزان» مبتسمًا مردفًا:

– هذه زوجة أخيك.

دُهشت ملتفتة إلى أخيها تسأله:

– متى وكيف حدث هذا؟

أود معرفة ما ستفعله أمي حينما تتفاجأ بهذا الخبر، الأهم الآن أنكم جميعًا بخير، لكن أين «أوس» لا أراه بينكم.

ابتلع «غسان» غصة في حلقه مردفًا:

– لقد اختطف في مكان لا نعرفه بعد، ولكن أريد أن أطمئنك على «صفية» وطفلها هما بخير.

تركتهم وراحت تنظر إلى صورته أمامها، تسترجع ذكرياتها الجميلة واللحظات الحلوة التي جمعتهما معًا، كم فرحا، وكم بكيا، وكم واجها صعوباتٍ اجتازاها معًا، لكن يعلمنا الزَّمان أنَّ الحياة ليست إلَّا مجموعة صور غير مكتملة، وليست دائمة.

قال «كيرال» وهو يربت على كتفها:

– جاءتنا رسالة من خاطفه فحواها أننا سنجده حيث خُلق الرعب.

نظروا إلى بعضهم بعضًا، عازمين على إنقاذه وعدم تركه للضياع بين كهوف الصحراء وثغورها التي اعتاد على رؤيتها في ممالك الجبال.

تمت بحمد الله.

الختام

«يجب تقوية روابطنا ببقية المسلمين في كل مكان، يجب أن نقترب من بعضنا بعضًا أكثر وأكثر؛ فلا أمل في المستقبل إلا بهذه الوحدة، ووقتها لم يحن بعد، لكنه سيأتي اليوم الذي يتحد فيه كل المؤمنين وينهضون نهضة واحدة ويقومون قومة رجل واحد يحطمون رقبة الكفار».

السلطان عبد الحميد الثاني

«نردد شعارات يومية، ننشرها ونكتبها بأيدينا، لكن حين يأتي موعد التنفيذ نهرب - إلا من رحم ربي يثبت - وهذا ليس إلا محض تفضل من الله عز وجل، فالثبات منه وحده، كذا العزة والنصر، ولن يأتي تمكين لجيل فاقد هويته وبوصلته التي توجهه إلى الحق ونصرته».

هبة زايد.

فهرس المحتويات

الفصل الأول: «كاهن الأوراس» 11

الفصل الثاني: «الهوية» 37

الفصل الثالث: «المدينة الوردية» 64

الفصل الرابع: «عين جهانيم» 82

الفصل الخامس: «ناقوس الخطر» 101

الفصل السادس: «آبولونيا» 121

الفصل السابع: «جباليا» 141

الفصل الثامن: «جرزيم» 159

الفصل التاسع: «القيامة» 174

الفصل العاشر: «ريماتا» 187

الفصل الحادي عشر: «أرض الإله» 200

الفصل الثاني عشر: «قمران» 213

الختام 223

فهرس المحتويات 224